

تميز المؤمنين (رؤية قرآنية)

د. توفيق بن علي زبادي

تَمَيُّزُ الْمُؤْمِنِينَ... رُؤْيَةُ قُرْآنِيَّة

تأليف

د. توفيق علي زبادي

حقوق الطبع محفوظة

ح مجلة البيان، ١٤٣٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

زبادي، توفيق علي

تميز المؤمنين رؤيه قرآنية/ توفيق علي زبادي - الرياض، ١٤٣٠هـ

ص ١١٣؛ ١٦,٥ × ٢٢,٢ سم

ردمك: ٣-٥-٩٠٠٧٧-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامه أ. العنوان

١٤٣٠/٦١٨٥

ديوي ٢٢٩

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٦١٨٥

ردمك: ٣-٥-٩٠٠٧٧-٦٠٣-٩٧٨



الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

وبعد :

فهذا بحث بعنوان: (تميز المؤمنين... رؤية قرآنية) يُبين لنا تميّز المجرمين وسبيلهم، ليظهر لنا تميّز المؤمنين وسبيلهم.

ويهدف البحث إلى إبراز « انتقام الحق من أعدائه بما يُطَيَّبُ به قلوب أوليائه»؛ لينشأ في قلب المؤمن الاعتقاد اليقيني بأنه على الحق، وأن الذين يعادونه ويحاربونه على الباطل في ثقة ووضوح ويقين.

وقد تناول البحث: تعريف المجرمين، و(جَرَم) في السياق القرآني، وأسباب كونهم مجرمين، وصفاتهم، والإجرام المعاصر، وموقفهم من المؤمنين في الدنيا، وموقف المؤمنين منهم في الدنيا والآخرة، ومصير المجرمين يوم الدين، ونَعْرَضُ لنموذجين من الأقوام المجرمين: قوم فرعون، وقوم لوط، ثم عرضنا من نعيم أهل الجنة.

وقد أبرز البحث عدّة نتائج يُرجى لها أن تعود بفوائد حسنة على الأمة الإسلامية.

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١] أما بعد^(١):

فالمنهج القرآني في بيان حُسن الشيء وتمييزه يُظهِر ضده، كما قيل: والضد لا يتبين إلا بضده، وكما قال الشاعر: والضد يُظهِر حسنه الضد، وكما قال المتنبي: وبضدها تتبين الأشياء.

وقد استخدم المنهج القرآني هذا الأسلوب في بيانه لتَمَيِّز المؤمنين وسبيلهم، بتمييزه للمجرمين وسبيلهم كما قال في تمييزه للمجرمين ﴿وَأَمَّا زُورَ الْيَوْمِ أَيُّهَا

(١) تُسمى هذه خطبة الحاجة وكان رسول الله ﷺ يفتتح بها كلامه: مسند الإمام أحمد: ١/ ٣٩٢ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

المُجْرِمُونَ ﴿يس : ٥٩﴾ أي : «ميزوا المسلمين من المجرمين»^(١). ولم يقل هنا وامتازوا اليوم أيها المؤمنون .

وكما قال في ضرورة استبانة سبيل المؤمنين ، باستبانة سبيل المجرمين ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام : ٥٥] . ولم يقل هنا ولتستبين سبيل المؤمنين . وقد سلطنا في هذا البحث هذا الأسلوب فمميزنا المؤمنين وسبيلهم ، بتميز المجرمين وسبيلهم .

إن تميُّز المجرمين وسبيلهم ضروري ؛ لتميُّز المؤمنين وسبيلهم ، ذلك أن الله - سبحانه - يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر ؛ أي التأكد من أن هذا باطل محض وشر خالص ؛ وأن ذلك حق محض وخير خالص ، كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق ، ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحادُّه ويحاربه إنما هو على الباطل ، وأنه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر الله - تعالى - في كتابه أنه جعل لكل نبي عدواً منهم ، قال - تعالى - : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان : ٣١] ليستقر في نفوس المؤمنين أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون ، عن ثقة ، وفي وضوح ، وعن يقين ؛ فاستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف المنهج القرآني .

قال ابن القيم - رحمه الله - : والناس في هذا الموضوع أربع فرق :

الأولى : من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علماً وعملاً ،

(١) الدر المنثور في التفسير بالماثور : ٣١١ / ٨ .

وهؤلاء أعلم الخلق .

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل
المجرمين أحضر ولها أسلك .

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها؛ فهو
يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل
وإن لم يتصوره على التفصيل، بل إذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف
سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه، وهو بمنزلة من سلمت نفسه
من إرادة الشهوات؛ فلم تخطر بقلبه ولم تدعُ إليها نفسه بخلاف الفرقة الأولى؛
فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله، وقد كتبوا إلى عمر
بن الخطاب - رضي الله عنه - يسألونه عن هذه المسألة:

أيهما أفضل: رجل لم تخطر له الشهوات ولم تُمرَّ بباله أو رجل نازعته إليها
نفسه فتركها لله؟

فكتب عمر: إن الذي تشتهى نفسه المعاصي ويتركها لله - عز وجل - من
الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم، وهكذا من عرف البدع
والشرك والباطل وطرقه؛ فأبغضها لله وحذَّرها وحذَّرَ منها ودفعها عن نفسه ولم
يدعها تخدش وجه إيمانه، ولا تورثه شبهة ولا شكاً، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في
الحق ومحبة له وكراهة لها ونفرة عنها أفضل ممَّن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه؛ فإنه
كلما مرت بقلبه وتصورت له، ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسروراً به؛
فيقوى إيمانه به، كما إن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلما مرت به فرغب
عنها إلى ضدها، ازداد محبة لضدها ورغبة فيه وطلباً له وحرصاً عليه؛ فما ابتلى

الله - سبحانه - عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها له - سبحانه - فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى؛ فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات وشدّت إرادته لها وشوقه إليها، صرف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النوع العالي الدائم؛ فكان طلبه له أشد وحرصه عليه أتم بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك؛ فإنها وإن كانت طالبة للأعلى، لكن بين الطليين فرق عظيم: ألا ترى أن من مشى إلى محبوبة على الجمر والشوك أعظم ممّن مشى إليه راكباً على النجائب؛ فليس من أثر محبوبة مع منازعة نفسه كمن أثره مع عدم منازعتها إلى غيره؛ فهو - سبحانه - يبتلي عبده بالشهوات؛ إما حجاباً له عنه أو حاجباً له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفضّلة، وسبيل المؤمنين مجمّلة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع؛ فعرّفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك، بل عرفه معرفة مجمّلة وإن تفصلت له في بعض الأشياء، ومَن تأمل كتبهم رأى ذلك عياناً، وكذلك من كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكاً لها إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجمّلاً غير عارف بها على التفصيل؛ معرفة من أفنى عمره في تصرّفها وسلوكها.

والمقصود: إن الله - سبحانه - يحب أن تُعرف سبيل أعدائه لُتُجَنَّبَ وتُبَغَضَ، كما يُحب أن تُعرف سبيل أوليائه لُتُحَبَّ وتُسلَّك^(١).

ونسأل الله السداد والتوفيق، والقبول الحسن.

(١) الفوائد: ابن القيم، ص ١١٠.

المبحث الأول

تعريف:

ج ر م: الجُرْمُ والجَرِيْمَةُ الذنب، تقول: منه جَرَمَ وأجْرَمَ واجْتَرَمَ والجُرْمُ بالكسر الجسد، وجَرَمَ أيضاً كسب وبابهما ضرب وقوله - تعالى - ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: ٢] أي: لا يحملنكم، ويقال: لا يُكْسِبَنَّكُمْ، وتَجَرَّمَ عليه أي ادعى عليه ذنباً لم يفعله^(١).

والمُجْرِمُ: المذنب والجارِمُ: الجاني^(٢).

قال الراغب - رحمه الله - : أجرم: صار ذا جُرم واستعير ذلك لكل اكتساب لمكروه^(٣).

الإجرام: ارتكاب الجريمة؛ وهي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه عليه النكال^(٤).

(١) مختار الصحاح: ص ١١٩.

(٢) كتاب العين: ج ٦ / ١١٩.

(٣) المفردات: ١٩٢.

(٤) أضواء البيان: ٣ / ٣٥٤.

تعريف المجرم عند المفسرين :

قال الشوكاني - رحمه الله - المجرم : هو المتلبس بالكفر والمعاصي^(١) .

وقال الرازي - رحمه الله - : المجرم هو الآتي بالذنب العظيم ؛ لأن الجرم فيه دلالة على العِظم ، ومنه جرم الشيء لعظمة مقداره^(٢) .

وقال ابن عاشور - رحمه الله - : المجرم الذي أتى الجُرم ، وهو الذنب العظيم ؛ أي الكفر^(٣) ، والمجرم أيضاً : هو فاعل الجريمة ، وهي المعصية والفعل الخبيث^(٤) .

وقال ابن عطية - رحمه الله - المجرم : الذي اكتسب الخطايا والجرائم^(٥) .

وقد ورد لفظ «جَرَمَ» ومشتقاته في القرآن على ستّة أوجه :

الأول : الجُرْم بمعنى الشرك ، والمجرم بمعنى المشرك ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمئِذٍ...﴾ [المعارج : ١١] وقيل : المراد أبو جهل وأصحابه .

الثاني : الجُرْم بمعنى اعتقاد أهل القَدَر ، والمجرم القَدَرِي ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر : ٤٧] قال محمد بن كعب : هم القَدَرِيَّة .

الثالث : بمعنى الفاحشة ؛ أي : اللواط . المجرم اللوطني ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) فتح القدير : ١٤ / ٥ .

(٢) تفسير الرازي : ٣٠١ / ١٤ .

(٣) التحرير والتنوير : ٣١١ / ١٥ .

(٤) المرجع السابق : ٢٦٥٨ .

(٥) المحرر الوجيز : ٤١٣ / ٤ .

المُجْرِمِينَ ﴿ الأعراف : ٨٤ ﴾ أي : المشتغلين بها .

الرابع : بمعنى : حَمَلَ العداوة ﴿ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ [هود : ٨٩] أي : لا يحملنكم خلافي .

الخامس : لا جرم بمعنى (حَقًّا) ﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ [هود : ٢٢] و ﴿ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ [النحل : ٦٢] أي : ليس بجُرم لنا أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ، تنبيهاً إلى أنهم اكتسبوها بما ارتكبوه .

السادس : بمعنى : الإثم والذنب والزَّلَّةُ ﴿ فَعَلَيْ إِجْرَامِي ﴾ [هود : ٣٥] أي : فَعَلَيْ إِثْمِي^(١) .

وهنا تساؤل : إن كان الكفر أعظم حالاً من الجُرم ، فما السبب في وصف الكفار كونهم مجرمين ؟

قال الرازي - رحمه الله - : لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه ، وقد يكون مجرماً في دينه ، وقد يكون فاسقاً في دينه فيكون أخسَّ الناس^(٢) .

(١) بصائر ذوي التمييز من الكتاب العزيز : ٢ / ٢١٢ .

(٢) تفسير الرازي : ٩ / ١٤ .

المبحث الثاني

(جَرَمَ) في الاستعمال القرآني

ورد لفظ «جَرَمَ» ومشتقاته في الاستعمال القرآني في ستة وستين موضعاً:

٣	بَجْرَمْتَكُمْ
١	أَجْرَمْنَا
٣	أَجْرَمُوا
١	تَجْرِمُونَ
١	إِجْرَامِي
١	الْمَجْرِمُ
١	مُجْرِمًا
١٥	مُجْرِمُونَ
٣٤	مُجْرِمِينَ
١	مُجْرِمِيهَا
٥	جَرَمَ
٦٦	مجموع

المبحث الثاني: (جَرَم) في الاستعمال القرآني

سنة مواضع في القرآني المدني وستون في القرآن المكي.

الآية	ك / م	رقمها	السورة	نص الآية
٢	م	٥	المائدة	وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا
٨	م	٥	المائدة	وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْتَدُوا
٨٩	ك	١١	هود	وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ
٢٥	ك	٣٤	سأ	فَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ
١٢٤	ك	٦	الأنعام	سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ
٤٧	ك	٣٠	الروم	فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْتَمَنَّا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
٢٩	ك	٨٣	المطففين	الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ
٣٥	ك	١١	هود	قُلْ إِنْ أَقْبَرْتَهُ فَعَلَيَّْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا جُرْمُونِ
٣٥	ك	١١	هود	قُلْ إِنْ أَقْبَرْتَهُ فَعَلَيَّْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا جُرْمُونِ
١١	ك	٧٠	المعارج	يَوْمَ الْمَجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ
٧٤	ك	٢٠	طه	إِنَّهُ مَا نَأَتْ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا
٨	م	٨	الأنفال	لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ
١٧	ك	١٠	يونس	فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ المُجْرِمُونَ
٥٠	ك	١٠	يونس	قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ
٨٢	ك	١٠	يونس	وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ
٥٣	ك	١٨	الكهف	وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا
٩٩	ك	٢٦	الشعراء	وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ
٧٨	ك	٢٨	القصص	وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ
١٢	ك	٣٠	الروم	وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْسِئُ الْمُجْرِمُونَ
٥٥	ك	٣٠	الروم	وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ
١٢	ك	٣٢	السجدة	وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسَ رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

وَأَمَّا زُوا النِّوْمِ أَيُّهَا المُجْرِمُونَ	يس	٣٦	ك	٥٩
فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ	الدخان	٤٤	ك	٢٢
يُعْرِفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ	الرحمن	٥٥	م	٤١
هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا المُجْرِمُونَ	الرحمن	٥٥	م	٤٣
كُلُوا وَشَبِّهُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ		٧٧	ك	٤٦
وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتبينَ سَبِيلَ المُجْرِمِينَ	الأنعام	٦	ك	٥٥
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ المُجْرِمِينَ	الأنعام	٦	ك	١٤٧
وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ	الأعراف	٧	ك	٤٠
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِينَ	الأعراف	٧	ك	٨٤
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ	الأعراف	٧	ك	١٣٣
إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُّجْرِمِينَ	التوبة	٩	م	٦٦
وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ المُجْرِمِينَ	يونس	١٠	ك	١٣
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ	يونس	١٠	ك	٧٥
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ	هود	١١	ك	٥٢
وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُّجْرِمِينَ	هود	١١	ك	١١٦
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ المُجْرِمِينَ	يوسف	١٢	ك	١١٠
وَتَرَى المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ	إبراهيم	١٤	ك	٤٩
كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ	الحجر	١٥	ك	١٢
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ	الحجر	١٥	ك	٥٨
وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ	الكهف	١٨	ك	٤٩
وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا	مريم	١٩	ك	٨٦
يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا	طه	٢٠	ك	١٠٢

المبحث الثاني: (جَرَم) في الاستعمال القرآني

يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ	الفرقان	٢٥	ك	٢٢
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ	الفرقان	٢٥	ك	٣١
كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ	الشعراء	٢٦	ك	٢٠٠
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ	النمل	٢٧	ك	٦٩
قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهيرًا لِلْمُجْرِمِينَ	القصص	٢٨	ك	١٧
إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ	السجدة	٣٢	ك	٢٢
أَنحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ	سبأ	٣٤	ك	٣٢
إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ	الصفات	٣٧	ك	٣٤
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ	الزخرف	٤٣	ك	٧٤
أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ	الدخان	٤٤	ك	٣٧
أَقْلَمُ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ	الحجاثية	٤٥	ك	٣١
فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ	الأحقاف	٤٦	ك	٢٥
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ	الذاريات	٥١	ك	٣٢
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ	القمر	٥٤	ك	٤٧
أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ	القلم	٦٨	ك	٣٥
عَنِ الْمُجْرِمِينَ	المدثر	٧٤	ك	٤١
كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ		٧٧	ك	١٨
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا	الأنعام	٦	ك	١٢٣
لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ	هود	١١	ك	٢٢
لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ	النحل	١٦	ك	٢٣
لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ	النحل	١٦	ك	٦٢
لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ	النحل	١٦	ك	١٠٩
لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ	غافر	٤٠	ك	٤٣

وقفات مع الآيات :

ومما يلاحظ في الآيات المكية ستون آية ذُكِرَ فيها (جَرَمَ) :

١ - أن التسلية الإلهية للمؤمنين المعدِّين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة، وأذاهم البالغ، وسخريتهم اللثيمة، كانت وَعْدَ الله للمؤمنين بالجنة، والمجرمين النار، وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل، وأن كثرة الآيات التي تحدث عن المجرمين وانتقام الله منهم تدل دلالة واضحة على شدة ما لاقاه المؤمنون من المجرمين من إيذاء واستهزاء .

٢ - أن الناس وقفوا تجاه الرسل فريقين :

- مجرمين لا يؤمنون ولا يتدبرون ولا يكفون عن إيذاء الرسل والصد عن سبيل الله .

- ومؤمنين يدركون آيات الله، ويشكرون رحمته، ويثقون بوعده، ويحتملون من المجرمين ما يحتملون، ثم كانت العاقبة التي تتفق مع عدل الله ووعد الوثيق، للمؤمنين .

٣ - أن الله - جل جلاله - عرض من مشاهد يوم القيامة ما يلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض، وهم يجدون أنفسهم في المقام الكريم وأعداءهم المجرمين المستكبرين في المقام المَهين، وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون، وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها، كأنه ماض انتهى وولى .

٤ - أن المجرمين ينشطون في سخريتهم وإيذائهم واستهزائهم من المؤمنين وقت

الاستضعاف والتكوين، ويسكنون - وإن كانوا يعملون في الخفاء - وقت القوة والتمكين؛ يُلاحظ هذا من كثرة الآيات المكية التي تكلمت عن المجرمين وأساليبهم في محاربة المرسلين ومن معهم من المؤمنين. والسخرية والاستهزاء مع الضعف والقلة مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية.

٥ - بينت الآيات هلاك المجرمين الذي كانوا يناصبون المؤمنين العداء في الأقوام السابقة، ونجاة المؤمنين ونصرهم عليهم في الدنيا والآخرة.

٦ - بينت الآيات صورة من صور النصر، وهو: ثبات المؤمنين على إيذاء المجرمين حتى الاستشهاد؛ كما حدث مع السحرة وإيمانهم بما جاء به موسى - عليه السلام - وهي دعوة للمؤمنين في أرض الإسراء، وأرض الرافدين، للثبات على الدين حتى الممات في سبيل الله رب العالمين.

٧ - بينت الآيات أن من حَكَمَ الله - تعالى - الباهرة عدَمَ مساواة المؤمنين بالمجرمين، وأن هذه المساواة مرفوضة في الفِطْر والعقول.

٨ - أن المجرمين صاروا أكابر المجتمعات بضعف أهل الإيمان وكسلهم وخوفهم وجبنهم.

٩ - أن إحقاق الحق سنة من سنن الله المطردة؛ إحقاقه بالحجة الدامغة والدلائل الباهرة، كما جاء في الآيات المكية، أو بالقتال في سبيل الله لمحق الباطل وأهله، كما جاء في الآيات المدنية.

١٠ - أن الإجماع سبب استكبار المستكبرين.

١١- أن كراهة المجرمين للحق سنة إلهية؛ لأنه يحول بينهم وبين شهواتهم.

١٢- أن لفظ (المجرمين) جاء في صيغة الجمع ١٥ (مجرمون) و ٣٤ (مجرمين)، ١ (مجرميها)، ولفظ مُجْرِمٍ (مرتان) مما يدل دلالة أكيدة على أن المجرمين يعملون في شكل كيانات ولوبي بطريقة منهجية منظمة؛ لتحقيق أهدافهم، وتنفيذ مآربهم، وهذه دعوة للمصلحين أن يكونوا في كيانات جماعية منظمة لمواجهة هذا اللوبي الإجرامي «وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».

المبحث الثالث

أسباب كون المجرمين مجرمين، كما ورد في القرآن

أولاً: كراهية الحق:

فالمجرمون يكرهون الحق وظهوره وظهور أهله، وسنة الله إظهار الحق بمواعيده التي حددها - سبحانه - لا يقترح عليه أحد من عباده، ولكنه - سبحانه - له حِكم في تأخير ظهور الحق منها:

- تمحيص الصف المؤمن .

- وإقامة الحجة البالغة الدامغة .

قال - تعالى - : ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٨٢] وقال

- جل في علاه - : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٨] .

(والكراهية هنا كناية عن لوازمها؛ وهي الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة

إرادة إحقاق الحق) فإن المشركين بكثرة عددهم يريدون إحقاق الباطل وإرادة الله تنفذ بالرغم على كراهية المجرمين^(١) .

وسبب كراهية المجرمين للحق:

١ - لأنه يُصَادِمُ أهواءهم .

(١) التحرير والتنوير: ص ١٧٢٢ .

٢ - يقف في طريق شهواتهم .

وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ، ولكنهم أجراً على الحق وعلى دعائه ؛ فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجترار على الدعاة^(١) .

فائدة من الآية :

بين الله حكمته في فرضية القتال على المسلمين وهي : أن الحق لا يثبت بلا قتال ، وأن الباطل لا يضمحل إلا بقتال ، وأن الكافرين لا يُستأصلون إلا بجهاد .

والآية دعوة إلى أولي الأمر في عصرنا أن يرتفعوا بأعمهم إلى أعلى مستوى في القتال على مستوى العصر الذي نعيشه .

ثانياً : استعجال العذاب استهزاءً :

قال - تعالى - : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٥٠] .

استفهام معناه التهويل والتعظيم ؛ أي ما أعظم ما يستعجلون به ! كما يقال لمن يطلب أمراً يستوخم عاقبته : ماذا تجني على نفسك؟^(٢) .

ثالثاً : مُضْلُونَ لِأَقْوَامِهِمْ :

قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الشعراء : ٩٩] أي : رؤساؤهم

(١) في ظلال القرآن : ٦ / ٣٦٧ .

(٢) تفسير القرطبي : ٨ / ٣١٤ .

الذين أضلّوهم، أو إبليس وجنوده وَمَنْ سَنَّ الشَّرْكَ^(١)، وقد أفلسنا اليوم من
وعودهم الكاذبة والآمال المعقودة.

وقال أبو العالية وعكرمة: الْمُجْرِمُونَ: إبليس وابن آدم القاتل؛ هما أوّل من سَنَّ
الكفر والقتل وأنواع المعاصي^(٢).

رابعاً: الاستكبار:

الاستكبار: التَّعَظُّمُ^(٣). والاستكبار يقال على وجهين:

أحدهما: أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً، وذلك متى كان على ما
يجب وفي المكان الذي يجب وفي الوقت الذي يجب، فمحمود.

والثاني: أن يتشبع فيُظهِر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم وعلى هذا
ورد النكير في القرآن، وهو قوله - تعالى - : ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾
[الأعراف: ١٣٣] حيث نبه بقوله فاستكبروا على تكبرهم وإعجابهم بأنفسهم
وتعظّمهم عن الإصغاء إليه، ونبه - سبحانه - بقوله: ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ إلى
أن الذي حملهم على ذلك هو ما تقدم من جرمهم، وأن ذلك لم يكن شيئاً حدث
منهم بل كان ذلك دأبهم قبل^(٤).

وقال - تعالى - : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ

(١) تفسير النسفي: ٣ / ١٩٠.

(٢) التفسير المنير: ١٩ / ١٨٤.

(٣) لسان العرب: ٥ / ١٢٥.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٤٢٢.

مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿ [الأعراف: ١٣٣] وقال - تعالى - ﴿ وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿

[الجانية: ٣١].

قال أبو جعفر - رحمه الله - : يقول - تعالى ذكره - : فاستكبر هؤلاء الذين
أرسل الله عليهم ما ذكر في هذه الآيات والحجج عن الإيمان بالله وتصديق رسوله
موسى - عليه الصلاة والسلام - وأتباعه على ما دعاهم إليه وتعظموا على الله وعتوا
عليه (وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) يقول: كانوا قوماً يعملون بما يكرهه الله من المعاصي
والفسق عتواً وتمرداً^(١). «وإنما صيغ الخبر عن إجرامهم بصيغة الجملة الإسمية للدلالة
على ثبات وصف الإجرام فيهم، وتمكنه منهم، ورسوخه فيهم من قبل حدوث
الاستكبار، وفي ذلك تنبيه على أن وصف الإجرام الراسخ فيهم هو علة للاستكبار
الصادر منهم»^(٢).

خامساً: الترف:

تَرْفَ: التَرْفُ التَّنَعُّمُ وَالتَّرْفَةُ: النَّعْمَةُ، وَالتَّرْفُ الَّذِي قَدْ أَبْطَرَتْهُ النَّعْمَةُ وَسِعَةَ
العَيْشِ، وَاتَّرَفَتْهُ النَّعْمَةُ أَي: أَطْعَمَتْهُ، وَقَوْلُهُ - تَعَالَى - ﴿ إِلَّا قَال مُّتْرَفُوهَا ﴾ أَي:
أُولُو التَّرْفَةِ وَأَرَادَ رُؤْسَاءَهَا وَقَادَةَ الشَّرِّ مِنْهَا^(٣).

قال - تعالى - : ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُّجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

(١) تفسير الطبري: ٦ / ٣١.

(٢) التحرير والتنوير: ص ١٦٢١.

(٣) لسان العرب: ٩ / ١٧.

في الآية عبرة وموعظة للعصاة من المسلمين؛ لأنهم لا يخلون من ظلم أنفسهم، واتباع ما أترفوا فيه هو الانقطاع له والإقبال عليه إقبال المتبع على متبوعه، وأترفوا: أعطوا الترف وهو السعة والنعيم الذي سهله الله لهم؛ فالله هو الذي أترفهم فلم يشكروه، و ﴿كَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: في اتباع الترف؛ فلم يكونوا شاكرين وذلك يحقق معنى الاتباع؛ لأن الأخذ بالترف مع الشكر لا يطلق عليه أنه اتباع بل هو تمحُّص وانقطاع دون شوبه بغيره، فحق عليهم هلاك المجرمين^(١).

سادساً: الحسد والبغي:

وإنما ثبت المجرمون على باطلهم، وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرُّسل حسداً منهم وبغياً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] من النبوة والرسالة. وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعُجِبَ بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتمحُّر على فضل الله وإحسانه.

فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فيمن علمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها وهو متصف بكل خلق جميل، ومترى من كل خلق دنيء، أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً، ومن لم يكن كذلك، لم يضع أفضل مواهبه عند من لا يستأهله ولا يزكو عنده.

وفي هذه الآية دليل على كمال حكمة الله - تعالى - لأنه وإن كان - تعالى -

(١) التحرير والتنوير: ص ٢١٥٢.

رحيماً واسع الجود، كثير الإحسان؛ فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله^(١).

قال سيد قطب - رحمه الله - : يكشف السياق القرآني عن طبيعة الكبر في نفوس أعداء رسل الله ودينه؛ الكبر الذي يمنعهم من الإسلام خيفة أن يرجعوا عبادة لله كسائر العباد؛ فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع، ويكبر عليهم أن يؤمنوا للنبي فيسلموا له، وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للأتباع، وأن يُشرَّعوا لهم؛ فيقبلوا منهم التشريع، وأن يأمرهم؛ فيجدوا منهم الطاعة والخضوع. من أجل ذلك يقولون قولتهم المنكرة الغبية كذلك: لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتي رسل الله.

وقد قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك؛ لأنني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً.

وقال أبو جهل: والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه. وواضح أن الكبر النفسي، وما اعتاده الأكابر من الخصوصية بين الأتباع، ومظهر هذه الخصوصية الأول هو الأمر منهم والطاعة والاتباع من الأتباع من أسباب تزيين الكفر في نفوسهم، ووقوفهم من الرسل والدين موقف العداء^(٢).

سابعاً: المنكر:

قال - تعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

(١) تفسير السعدي: ص ٢٧١.

(٢) في ظلال القرآن: ٣ / ١٤٠.

المَكْرُ: احتيال في خُفية، والمَكْرُ الحَدِيدَةُ والاحتِيال^(١).

عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: سلطنا شرارهم فعصوا فيها؛ فإذا فعلوا ذلك، أهلكتناهم بالعذاب.

وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَكَابِرٌ مُّجْرِمِيهَا﴾ عظامؤها^(٢) «وخصهم بالذكر؛ لأنهم أقدر على الفساد والمكر والحيلة في مخالفة الاستقامة»^(٣).

«إنها سنة جارية أن يُتَدَبَّ في كل قرية - وهي المدينة الكبيرة والعاصمة - نفر من أكابر المجرمين فيها، يقفون موقف العداوة من دين الله. إن دين الله يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكابر من السلطان الذي يستطيلون به على الناس، ومن الربوبية التي يتعبدون بها الناس، ومن الحاكمية التي يستذلون بها الرقاب، ويرد هذا كله إلى الله وحده، رب الناس، ملك الناس، إله الناس.

إنها سنة من أصل الفطرة؛ أن يرسل الله رسله بالحق... بهذا الحق الذي يجرّد مدعي الألوهية من الألوهية والربوبية والحاكمية؛ فيجهر هؤلاء بالعداوة لدين الله ورسول الله. ثم يمكرون مكرهم في القرى، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ويتعاونون مع شياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى، وفي نشر الباطل والضلال، واستخفاف الناس بهذا الكيد الظاهر والخافي.

إنها سنة جارية، ومعركة محتومة؛ لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين

(١) لسان العرب: ١٨٣ / ٥.

(٢) تفسر ابن كثير: ٢٣٢ / ٢.

(٣) تفسير القرطبي: ٧١ / ٧.

القاعدة الأولى في دين الله - وهي رد الحاكمية كلها لله - وبين أطماع المجرمين في القرى؛ بل بين وجودهم أصلاً^(١).

وهنا يثار تساؤل: لماذا صار المجرمون أكابر المجتمع؟

صار المجرمون أكابر المجتمع لأسباب منها:

١ - غفلة أهل الحق.

٢ - ضعف أهل الحق.

٣ - تفرق أهل الحق.

٤ - جهل أهل الحق.

هذه الأسباب وغيرها سهّلت على أهل الباطل أن يسيطروا على أهل الحق ويتجرؤوا عليهم وينصبوا أنفسهم قادة ورؤساء وعظماء وكبراء عليهم وعلى المجتمع كله.

«وقد مضت سنة الله أن المجتمع الذي يتفرق فيه أهل الحق ويجنبون عن مواجهة المجرمين، ويجتمع فيه المجرمون ويتحدون ويتقون ويتقدمون لتنفيذ إرادتهم، أن هؤلاء المجرمين هم الذين يسيطرون على المجتمع ويؤثرون فيه ويصيرون حكامه وقادته، ويجعلون أهل الحق المتفرقين الجبناء معزولين عن المجتمع وعن التأثير فيه.

إن الحق لا بد له من قوة تحميه وتثبت وجوده في المجتمع؛ فإذا فقد هذه القوة برزت قوة الباطل بقوة أهله وبرز المبطلون المجرمون وصاروا هم أكابر المجتمع وقادته والرؤساء فيه»^(٢).

(١) في ظلال القرآن: ٣ / ١٤٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٣ / ١٤٠.

المبحث الرابع

صفات المجرمين كما وردت في القرآن

سأل المؤمنون المجرمين: ما سلككم في سقر، أجاب المجرمون بذكر أسباب الزج بهم في النار، فذكروا أربعة أسباب هي أصول الخطايا، وهي:

- ١ - أنهم لم يكونوا من أهل الصلاة؛ فحرموا أنفسهم من التقرب إلى الله.
 - ٢ - وأنهم لم يكونوا من المطعمين المساكين، وذلك اعتداء على ضعفاء الناس بمنعهم حقهم في المال.
 - ٣ - وأنهم كانوا يخوضون خوضهم المعهود الذي لا يعدو عن تأييد الشرك وأذى الرسول ﷺ والمؤمنين.
 - ٤ - وأنهم كذبوا بالجزاء؛ فلم يطلبوا ما ينجيهم، وهذا كناية عن عدم إيمانهم.
- أولاً: لم يكونوا من المصلين:

قال - تعالى - : ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المدثر: ٤٣].

أي: لم نعتقد فرضيتها^(١) وهي كناية عن الإيمان كله، وتشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة، وتجعلها رمز الإيمان ودليله، يدل إنكارها على الكفر، ويعزل

(١) تفسير النسفي: ٣ / ٤٨٨ .

صاحبها عن صف المؤمنين .

ثانياً : لا يطعمون المسكين :

قال - تعالى - : ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴾ [المدثر : ٤٤] .

وهذه تلي عدم الإيمان، بوصفها عبادة الله في خلقه، بعد عبادته - سبحانه - في ذاته . ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها، وانقطاع الإحسان للفقير في هذه البيئة القاسية، على الرغم من الفخر بالكرم في مواضع المفاخرة والاختيال، مع تركه في مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء .

ثالثاً : الخوض مع الخائضين :

قال - تعالى - : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ [المدثر : ٤٥] .

الخَوْضُ من الكلام : ما فيه الكذب والباطل^(١) .

قال قتادة - رحمه الله - : كلما غوي غاو غوينا معه^(٢) .

وهي تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة وحقبة الإيمان، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال . وهي أعظم الجدد، وأخطر الأمر في حياة الإنسان، وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أي شأن آخر من شؤون هذه الحياة؛ فعلى أساسها يقوم تصوره وشعوره وقيمه وموازينه . وعلى ضوءها يمضي في طريق الحياة؛ فكيف لا يقطع فيها برأي ولا يأخذها مأخذ الجدد، ويخوض فيها مع الخائضين، ويلعب فيها مع اللاعبين؟

(١) لسان العرب : ٧ / ١٤٧ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٨ / ٢٧٣ .

رأساً: الكذّيب بيوم الدين :

قال - تعالى - : ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ [المدثر: ٤٦].

وهذه أس البلايا. فالذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين، وتضطرب في تقديره جميع القيم، ويضيق في حسه مجال الحياة، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض، ويقبس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير؛ فلا يطمئن إلى هذه العواقب، ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير... ومن ثمّ تفسد مقاييسه كلها ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا، قبل أن يفسد عليه تقديره للأخرة ومصيره فيها^(١).

(١) في ظلال القرآن: ٧ / ٣٩٧.

المبحث الخامس

الإجرام المعاصر

الصراع بين الحق والباطل سُنَّة ماضية، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومن ظنَّ أن الحق يمكنه التعايش مع الباطل في أمن وسلام، فقد جهل سنن الله في هذا الكون.

ومن المفاهيم الخاطئة التي تحتاج إلى تصحيح: مفهوم «الإجرام» فقد شاع في الأزمنة المتأخرة قَصْرُ وصف الإجرام على من ارتكب عملاً جنائياً عدوانياً؛ من قتل ونحوه حتى لا يكاد يُطلق على غير ذلك، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً وسائغاً في اللغة والشرع؛ إلا أننا نجد القرآن الكريم لم يردْ به بتاتاً، وغالب ما يرد لفظ الإجرام في القرآن في وصف الكافر المكذب بالله ورسله، ولو لم يرتكب قط في حياته عملاً جنائياً، وهذا المعنى لا يكاد يُعرف في هذا الزمن، بل إننا لنسمع كثيراً مَنْ يضيفي على الكافر لقب «السيد» وقد صحَّ في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا تَقُولُوا لِلْمُتَافِقِ سَيِّدَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدُكُمْ، فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

ومن تتبع الآيات التي ذَكَرَ فيها لفظ «جَرَمَ» بمشتقاته يوقن أن سبب الإجرام في الماضي والحاضر هو عداوة المجرمين للمؤمنين؛ لِمَا يحملون من منهج صالح

(١) مسند أحمد: حديث بريدة الأسلمي، رقم (٢١٨٦١).

ومصلح للبشرية في كل زمان ومكان، ولو أن هذا المنهج الرباني حكم البلاد والعباد لأزال سلطان المجرمين الذين أضلوا وأذلوا البلاد والعباد، وهذه سنة من السنن الإلهية في الكون والحياة، وهذه السنة الإلهية مطردة لا تتبدل ولا تتغير رغم تبدل وتغير أشخاص المؤمنين وأشخاص المجرمين.

من مظاهر الإجرام المعاصر:

أولاً: تشويه صورة العاملين للإسلام عن طريق الدعاية والإعلام:

إن المجرمين في العصر الحديث يشوهون - بوسائل الدعاية والإعلام التي في أيديهم - كل حركة إسلامية ناجحة على ظهر الأرض، ويعينون عليها أهل الباطل لتشويهها وتحطيمها - بالضبط كما كانوا يعينون مشركي قريش ويستنصرون بهم في الوقت ذاته - لتشويه الحركة الإسلامية الأولى وتحطيمها.

ولكنهم أحياناً - لخبثهم ولتمرسهم بالحيل الماكرة، ولملابسات العصر الحديث - قد لا يتنون ثناءً مكشوفاً على الباطل وأهله، بل يكتفون بتشويه الحق وأهله؛ ليعينوا الباطل على هدمه وسحقه. ذلك أن ثناءهم المكشوف - في هذا الزمان - أصبح متهماً، وقد يثير الشبهات حول حلفائهم المستورين، الذين يعملون لحسابهم، في سحق الحركات الإسلامية في كل مكان.

بل قد يبلغ بهم المكر والحذق أحياناً، أن يتظاهروا بعداوة وحرب حلفائهم الذين يسحقون لهم الحق وأهله. ويتظاهروا كذلك بمعركة كاذبة جوفاء من الكلام؛ ليعيدوا الشبهة تماماً عن أخلص حلفائهم الذين يحققون لهم أهدافهم البعيدة.

ولكنهم لا يكفون أبداً عن تشويه الإسلام وأهله؛ لأن حقدهم على الإسلام

وعلى كل شيخ من بعيد لأي بعث إسلامي، أضخم من أن يداروه ولو للخداع والتمويه^(١).

فأي حركة إصلاحية تغييرية تريد أن تعيد الأمة إلى سالف مجدها وعزها، لا بد أن تتعرض للاستئصال؛ وهذا ما عبر عنه صراحة «متشيل كلان» الخبير في التحليل السياسي بجامعة واشنطن؛ حيث قال: «إن أول ما يجب أن تهتم به الإدارة الأمريكية هو عملية حصر حقيقية للقوى والقيادات القادرة أو الصالحة لأن تكون ثورة رفض على قسط معين من الفاعلية، وعندما تكتشف الإدارة ذلك، عليها أن تلجأ إلى جميع الوسائل لاستئصال تلك القوى والقيادات: الترغيب والتطويع خطوة أولى، وإن لم تفلح فالحبس والسجن خطوة ثانية، وإلا فالقتل والاستئصال الجسدي»^(٢).

وما حدث مع حركة المقاومة الإسلامية حماس؛ من اغتيال لمرشدها الروحي الشيخ المجاهد أحمد ياسين، وكذلك اغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، وكذلك الحرب على غزة إلا مثلاً لهذه الخطة.

وما زال أفراد الحركة يتعرضون يومياً، للاعتقال، والضرب والقتل وغيرها من صنوف البلاء.

ولا يخفى على المهتم بأمر الأمة أن التأمير على حركات الإصلاح والتغيير، يؤدي إلى تجهيل الأمة وقطعها عن الحقائق التي ينبغي إدراكها؛ فتختفي أصوات الأحرار الأطهار ويغيبون في السجون أو في القبور، ويعلو المجرمون المترفون المفسدون، وبذلك تهدم الصروح الأخيرة في المجتمع المسلم.

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٥٣.

(٢) الطريق إلى بيت المقدس: ٣/ ١٦٨ - ١٦٩.

ثانياً: المكر السياسي السيء بالشعوب :

وهذا شأنُ أَكْثَرِ أَكْبَرِ الأُمَمِ وَالشُّعُوبِ - وَلَا سِيَّما فِي هذا الزمانِ الَّذِي كَثُرَتْ فِيها المَطامِعُ وَعَظُمَ حُبُّ الرِّياسَةِ وَالكِبْرِياءِ - يَمَكُرُونَ بِالنَّاسِ مِنْ أَفرادِ أُمَّتِهِمْ وَجَماعَتِها لِيَحْفَظُوا رِياسَتَهُمْ وَيَعزِّزُوا كِبْرِياءَهُمْ وَيُثَمِّروا مَطامِعَهُمْ فِيها، وَيَمَكُرُ الرُّؤساءُ وَالسَّاسَةُ مِنْهُمُ بغيرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ وَالدُّوَلِ لِإِرضاءِ مَطامِعِ أُمَّتِهِمْ وَتَعزِيزِ نَفوذِ حُكُومَتِهِمْ فِي تِلْكَ الأُمَمِ وَالدُّوَلِ . وَقَدْ عَظُمَ هَذَا المَكْرُ فِي هَذَا العَصْرِ فَصارَ قُطْبَ رَحَى السِّياسَةِ فِي الدُّوَلِ ، وَعَظُمَ الإِفْكَ بِعَظَمِهِ ؛ لِأَنَّهُ عَظُمَ أركانِهِ .

وهدف هذا المكر هو احتلال البلاد؛ وما حدث من التمهيد بالخداع والكذب من تقارير أعدت كذباً وبهتاناً لاحتلال العراق عن أصحاب البصيرة ببعيد، بل عن رجل الشارع العادي الذي لا يفقه في أمور السياسة شيء .

ويأخذ المكر صورة أخرى، هي: إخضاع حكام البلاد لمطالب الدول الكبرى، ومن لا يستجيب للأطماع يُقتل، أو يُعْتَقَلُ و ما مذكرة اعتقال الرئيس محمد عمر البشير (رئيس السودان) إلا تنفيذاً لهذا المكر السيء .

وَعاقِبَةُ هَذَا المَكْرِ السَّيِّئِ تَحِيْقُ بِهِمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ؛ أَمَّا فِي الآخِرَةِ فَالأَمْرُ ظاهِرٌ وَالتَّصْوِصُ وَاضِحَةٌ ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيا فَبِمَا ثَبَّتَ فِي الآياتِ :

- مِنْ نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ .
- وَهَلَاكِ الكَافِرِينَ المَعانِدِينَ لَهُمْ .
- وَمِنْ عُلُوِّ الحَقِّ عَلى الباطِلِ وَدَمغِهِ لَهُ .
- وَمِنْ هَلَاكِ القُرَى الظَّالِمَةِ المُفْسِدَةِ .

ثالثاً: الغزو الفكري:

و مظاهر الغزو الفكري كثيرة منها:

- ١ - محاولة تشويه القرآن الكريم والافتراء عليه .
- ٢ - محاولة تشويه السنّة النبوية والافتراء عليها .
- ٣ - محاولة تشويه شخص الرسول ﷺ .
- ٤ - محاولة تشويه التاريخ الإسلامي .
- ٥ - محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية .
- ٦ - محاولة تشويه التراث الإسلامي .
- ٧ - محاولة تخريب الحياة الاجتماعية والثقافية والتعليمية في بلاد المسلمين^(١) .

ويتم ذلك من خلال المؤلفات، والكتابات التي افترروا فيها على الإسلام، وكتاب الله الكريم .

وما ظهر في السنوات الأخيرة بما يسمى «الفرقان الحق^(٢)» وكذلك الافتراءات

(١) الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي، د.علي عبد الحليم محمود، دار المنار الحديثة، شبرا، مصر، ط: الرابعة ١٤١٢هـ-١٩٩٢م: ص٣٦ .

(٢) الفرقان الحق: كتاب ألفتة لجنة أمريكية إسرائيلية، واعتمده أصحاب القرار في أمريكا، ويراد له أن يكون هو القرآن المعتمد في الدول العربية والإسلامية في القرن الحادي والعشرين، ليحل محل القرآن الكريم، الذي أنزله الله الحكيم. وقد صدر الجزء الأول من هذا القرآن الأمريكي في مطلع عام ٢٠٠٤م. وينوون إصدار أحد عشر جزءاً تباعاً، عدد سوره سبع وسبعون سورة، =

على شخص رسول الله ﷺ وما نُشِرُ الرسوم والصور^(١) للإساءة إلى الرسول الكريم ﷺ وزوجاته أمهات المؤمنين إلا صورة من صور الحقد الدفين على الإسلام ورسوله الكريم ﷺ.

رابعاً: تقسيم المنطقة إلى دول ضعيفة:

يدرك أعداء الإسلام من خلال دراستهم للتاريخ الإسلامي أنه إذا اتحد المسلمون في دولة إسلامية، أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين؛ فإنهم يظلون حينئذٍ بلا وزن ولا تأثير، لذلك لجؤوا إلى الطريقة الفرعونية في التعامل مع الأمة الواحدة، حين يقومون بتقسيم الأمة أحزاباً ثم يضربون حزباً بحزب، ويفرقونها شيعاً ثم يسلطون شيعة على أخرى، كما وضح لنا القرآن الكريم حينما تأله فرعون في مصر، قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضِعُّ مِنْهُم طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

قال ابن عاشور - رحمه الله - : « جعل أهل بلاد القبط فرقة ذات نزعات تشيع كل فرقة إليه، وتعادي الفرقة الأخرى ليتم لهم ضرب بعضهم ببعض، وقد

= ومن أسماء تلك السور: الفاتحة، المحبة، المسيح، الثالث، المارقين، الصلب، الزنا، الماكرين، الرعاة، الإنجيل، الأساطير، الكافرين، التنزيل، التحريف، الجنة، الأضحى، العيس، الشهيد، والكتاب مطبوع باللغة العربية واللغة الانجليزية. (جريدة عرب نيوز: د. صلاح الخالدي، بتاريخ ١٩/٧/٢٠٠٤م).

(١) نُشِرَت الرسوم والصور في عام ٢٠٠٥م في صحف أوروبية، ثم أُعيد نشرها في عام ٢٠٠٦م، ثم أعادت أكثر من ١٧ صحيفة دنماركية وعدد من الصحف الألمانية والإنجليزية نشرها في عام ٢٠٠٨م.

أغرى بينهم العداوة ليأمن تألبهم عليه؛ كما يقال: (فرق تحكم) وهي سياسة لا تليق إلا بالمكر بالضد والعدو ولا تليق بسياسة ولي أمر الأمة الواحدة»^(١).

وقد توعد الله - عز وجل - مَنْ بَعَدَ عن منهجه، أن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض، قال - تعالى - : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قال القرطبي - رحمه الله - : «فقد لبسنا العدو في ديارنا، واستولى على أنفسنا، وأموالنا مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضاً واستباحة بعضنا أموال بعض»^(٢).

«والأمة التي تقع فيها هذه المآسي لا تظفر بعهود طويلة من الحرية والأمان، بل سرعان ما تقع فريسة غيرها؛ لأن مناعتها الخاصة ذابت في أتون المظالم التي جاءت من نفسها. وانقسام الأمة شيعاً على هذا النحو يساوي في خطورته الصواعق التي تنقض من السماء أو الزلازل التي تُدك بها الأرض؛ فهو مصدر لتقويض العمران وضياع العزة وهوان الشأن، وانتشار الفساد»^(٣).

وما يحدث في العراق وفلسطين ولبنان، وغيرها من بلاد الإسلام؛ من قتل لأهل البلد الواحد، واستباحة بعضهم أموال بعض، وتشهير بعضهم ببعض في

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٣١١٤.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢/٧.

(٣) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط: الثانية ١٣٨٠هـ = ١٩٦١م: ص ١٩٧ - ١٩٨.

القنوات الفضائية، والإذاعات المحلية والعالمية، والجرائد اليومية؛ ما هو إلا نتيجة لبعدهم عن الله واستيلاء عدوهم عليهم وتحكُّمهم فيهم، وتحريض بعضهم على بعض، من خلال عملائه وأجهزة مخابراته؛ و علة ذلك فساد الحكم على أيدي المستبدين الذين انفردوا به زمناً طويلاً.

وحذّر صاحب الرسالة أمته من هذا المصير؛ فعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى^(١) منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد! إنني إذا قضيت قضاءً؛ فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال: من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً»^(٢).

وخطة العدو في التفرقة تُصَوَّب نحو تقسيم الدول القوية إقليمياً إلى دويلات جغرافية ضعيفة، وذلك لتحجيم دورها، وتهميش فاعليتها:

ومن هذه الدول مصر: يقول (عوديد ينون) - أحد كبار موظفي السياسة في الخارجية الإسرائيلية - : « تجزئة مصر وتحويل كيائها إلى وحدات جغرافية مستقلة، هذا هو الهدف السياسي لإسرائيل خلال الثمانينات؛ إذا تمت تجزئة مصر؛ فإن دولاً

(١) زوى: معناه جمع، فيستبيح بيضتهم؛ أي: جماعتهم وأصلهم والبيضة أيضا العز والملك. صحيح مسلم بشرح النووي: (ج/٤/٢٢١٥).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض: ٤/٢٢١٥ رقم الحديث (٢٨٨٩).

ك (ليبيا والسودان) بل ودولاً أخرى أكثر بعداً لا يمكن أن تظل في صورتها الحالية، وعندئذ سوف تكون لدينا دولة نصرانية في مصر العليا، ثم عدد معين من الدول الضعيفة لا تملك سوى قدرة محدودة عوضاً عن الدولة المركزية الحالية، إن هذا هو التطور التاريخي المنطقي الذي نعرفه في الأمد البعيد والذي أخره فقط اتفاقية السلام عام ١٩٧٩م^(١).

ولقد رأينا وشاهدنا في السنوات الأخيرة المجابهة المتزايدة والمتصاعدة بين المسلمين والمسيحيين، والاقْتتال بينهم، والتحرّض من الخارج على استمرار هذه المجابهة، وضرورة حصول المسيحيين على نسبة من الحقائق الوزارية... إلى غير ذلك من المطالب التي تهدف إلى أن تتحقق خطة الأعداء في أن تكون في مصر العليا دولة نصرانية.

ومن الدول الكبرى في المنطقة، العراق: وهي فريسة لصراعات داخلية، وتقسيمها وتفكيكها هدف من أهداف العدو؛ لأنها تمثل الخطر الأكبر الذي يهدد إسرائيل، وكانت عاصمة الخلافة العباسية، التي كانت رمز وحدة الأمة.

وما يحدث في العراق الآن من احتلال أميركا وحلفائها، ليس إلاّ تنفيذاً لمخطط التقسيم وإذلالاً لحكام المنطقة، وما حدث من إعدام للرئيس (صدام حسين)^(٢) واثنين من معاونيه ليس إلا رسالة للحكام العرب؛ إن لم يقفوا مع أميركا، فسوف يكون مصيرهم مصير صدام ومعاونيه.

(١) الطريق إلى القدس: جمال عبد الهادي محمد مسعود، ط: الثانية، دار الوفاء - القاهرة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م: ٣/١٦٣ - ١٦٥.

(٢) تم إعدام الرئيس صدام حسين فجر يوم عيد الأضحى (العاشر من ذي الحجة) الموافق ٣٠ / ١٢ / ٢٠٠٦م. وقد جرى ذلك بعد تسليمه للحكومة العراقية من قِبَل الاحتلال الأمريكي تلافياً لجدل قانوني بأمريكا التي اعتبرته أسير حرب.

وتسعى أمريكا وحلفاؤها إلى إيقاد نار الفتنة بين الشيعة والسنة، وإظهار زيادة نسبة الشيعة على السنة؛ لتصبح العراق دولة شيعية تهدد دول المنطقة السنة.

ومن الدول المستهدفة، لبنان: يقول «بن جوريون» في يومياته: «نقطة الضعف في التآلف العربي لبنان؛ فالسيادة الإسلامية فيها شيء مصطنع، ويمكن بسهولة قلبها رأساً على عقب، وينبغي إقامة حكومة مسيحية في هذا البلد، وتكون حدودها نهر الليطاني وسنوقّع معاهدة تحالف مع هذه الدولة، وبعد ذلك نحطم الفرقة العربية الأردنية ونقصف عمان بالقنابل، ثم نكتسح شرق الأردن، وستسقط سوريا بعد هذا، وإذا تجرأت مصر على محاربتنا فسنقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة بالقنابل، وبهذا تنتهي الحرب»^(١).

ولقد صرح «موشي ديان» بأن: «إسرائيل كانت مصدر العون الرئيسي للموارنة»^(٢) في الحرب الأهلية التي بدأت عام ١٩٧٥م، سواء من حيث السلاح أو التدريب أو الأموال أو حتى التدخل المباشر، وكانت الولايات المتحدة هي المصدر الثانوي في هذا الصدد»^(٣).

وانظر إلى الاتفاق بين أمريكا وبين إسرائيل الذي وقعه الرئيس كلينتون مع

(١) ملف إسرائيل، روجيه جارودي، ترجمة: مصطفى فوده، ط: دار الشروق، بيروت، القاهرة: ص ١٥٨.

(٢) المارونية: طائفة من طوائف النصارى الكاثوليك الشرقيين، قالوا بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، ينتسبون إلى القديس مارون، ويُعرفون باسم الموارنة متخذين من لبنان مركزاً لهم. (الموسوعة الميسرة في الأديان، والمذاهب، والأحزاب المعاصرة: ص ٦٣٤).

(٣) تأملات في مسألة الأقليات، د. سعد الدين إبراهيم ط القاهرة / الكويت ط: الأولى ١٩٩٢م: ص ٢٠٧.

قادة اليهود؛ حيث وقع كلينتون مع قادة الدولة اليهودية اتفاقية دفاعية في نوفمبر ١٩٩٨م) والتي تنص على الآتي :

١ - أن تتدخل الولايات المتحدة عسكرياً إلى جانب «إسرائيل» في حالة اشتراكها في أية عمليات عسكرية في المنطقة .

٢ - سيكون التدخل الأمريكي لهدف دفاعي ؛ وهو منع الأطراف الأخرى من تحقيق أي نصر عسكري على «إسرائيل» .

٣ - أن التدخل الأمريكي سيكون مباشراً؛ ويعني ذلك اشتراك قوات عسكرية أمريكية إلى جانب «إسرائيل» في العمليات الحربية .

٤ - أن توفر الولايات المتحدة لـ «إسرائيل» شبكة أمان رادعة ضد منظومات الصواريخ المنتشرة في المنطقة، خاصة لدى إيران والعراق وسوريا .

٥ - تزود الولايات المتحدة «إسرائيل» بأجهزة إنذار ومراقبة ؛ تمكنها من رصد أية أخطار عسكرية محتملة على أراضيها، خاصة إذا كانت تلك الأخطار متعلقة باستخدام الصواريخ .

٦ - تقدم الولايات المتحدة لـ «إسرائيل» أنواعاً جديدة من الأسلحة، سوف تُستخدم بالأساس في دعم القدرات الدفاعية والردع «الإسرائيلي» .

٩ - تعزيز التعاون في مجال تبادل المعلومات بين البلدين ، وتوقيع اتفاقية تعاون جديدة مع وكالة المخابرات المركزية ووزارة الدفاع الأمريكية، في مجال تبادل المعلومات لأغراض عسكرية .

٨ - ستقدم الولايات المتحدة المعونات العسكرية الكافية لـ «إسرائيل» في حالة إقدامها على القيام بعملية عسكرية ضد دولة أخرى في المنطقة، شريطة أن تطلع الولايات المتحدة على تفاصيل العملية العسكرية قبل إقرارها في «إسرائيل» وأن تكون الدولة الأخرى من الدول التي تهدد أمن واستقرار «إسرائيل».

٩ - أن تركز علاقات التعاون الإستراتيجي والعلاقات العسكرية بين البلدين على أساس التحالف العسكري، وأن «إسرائيل» لن تكون ملزمة في المرحلة الأولى من التحالف بإرسال قوات إلى خارج المنطقة، إلا بعد أن ترتب أوضاعها الداخلية، بينما تلتزم الولايات المتحدة بأن ترسل قواتها إلى «إسرائيل».

١٠ - تتعهد الولايات المتحدة بتوجيه ضربة عسكرية مؤثرة، وبأسلحة فوق تقليدية ضد أي دولة تهاجم «إسرائيل».

كانت هذه هي الهدية التي قدمها (كلينتون) للدولة اليهودية كمسيحي بروتستانت متدين، وقد وضح هذه الخلفية التي تدفعه للتعاطف مع «إسرائيل» فقد زار كلينتون «إسرائيل» في عام (١٩٨١م) حيث وصف هذه الزيارة التي تأثر بها كثيراً بأنها كانت زيارة دينية أكثر منها سياسية، كما أنه تأثر كثيراً بقصة موت أحد رجال الدين المسيحيين كان قد مات مؤخراً، وقد تحدث إليه طويلاً قبل ذلك؛ حيث قال له هذا القس: «إنه يأمل أن يصبح كلينتون رئيساً للولايات المتحدة» ولكنه قال له أيضاً: «إنه يجب عليه أن يحافظ على «إسرائيل»... لأنه إذا تخلى عن «إسرائيل»؛ فلن يغفر له الله» وعلّق كلينتون على ذلك بقوله: «أعتقد أنه ينظر إلى الآن - يقصد القس - وإذا ما انتخبت؛ فلن أتخلى عن إسرائيل»^(١).

(١) الصليبيون الجدد، أ. يوسف العاصي: ص(١٠٦).

كما أن بوش الابن نسب إلى ربه كل أفعاله الإجرامية؛ من غزو لأفغانستان والعراق وحصار إجرامي لأهلنا في فلسطين السلبية؛ حيث برر كل هذا بأنه تكليف من الرب له، ولذلك لم يكن من الغريب أن يصرح بوش أثناء زيارته الوداعية كرئيس للولايات المتحدة والاحتفالية بمناسبة مرور ستين عاماً على قيام دولة الكيان اليهودي في فلسطين لم يكن غريباً أن يصرح أمام الكنيست بأنه يَعِدُ «الإسرائيليين» بأنه إذا ما تعرضت دولتهم لاعتداء إرهابي - بالطبع هو يقصد إسلامي - فإن من سيدافع عن «إسرائيل» ليس فقط السبعة ملايين يهودي، بل ثلاثمائة وسبعة ملايين «إسرائيلي» وهو يقصد تضامن الشعب الأمريكي مع الدولة اليهودية، وهو قد ختم زيارته الأخيرة لدولة اليهود بتمنياته أن يعيش حتى يحضر احتفال الدولة اليهودية بمرور مائة وعشرين عاماً على قيام إسرائيل.

وبعد هذا العرض نستطيع أن نفسّر:

١ - احتلال أمريكا وحلفائها للعراق.

٢ - مساعدة أمريكا لإسرائيل في حربها على لبنان.

٣ - مساعدة أمريكا وحلفائها للمتمردين في جنوب السودان لانفصال الشمال عن الجنوب، وما مشكلة دار فور إلا خطوة من خطوات تفكيك السودان.

٤ - مساعدة أمريكا وحلفائها لأثيوبيا في دخول الصومال ومقاتلتها للمحاكم الإسلامية.

٥ - محاربة أمريكا وحلفائها للحكومة الفلسطينية المنتخبة وفرض الحصار عليها، ومباركة الانقلاب عليها، وتمويل ذلك مالياً وعسكرياً ومخابراتياً.

٦ - مساعدة أمريكا لإسرائيل في حرب الأخيرة على غزة؛ بهدف القضاء على المقاومة الإسلامية، وإنهاء حكم حماس .

كل ما سبق يوضح لنا أنها مؤامرة ترمي إلى تفتيت المنطقة إلى مجموعة لا حد لها من الدويلات الطائفية العرقية؛ يسودها الخلاف والتناحر والتوترات؛ ليسهل على القوى الكافرة التدخل والتحكم والهيمنة .

خامساً: إحداث الاضطرابات الداخلية داخل الوطن الواحد:

الصورة الأولى: دعم وتدريب غِلْمَة صغار لإحداث تفجيرات، وإثارة اضطرابات، وقتل رجال أمن في معركة الخاسر فيها هم أبناء الوطن، وليس ما حدث في بلاد الحرمين وغيرها عنا ببعيد .

فأفة هؤلاء الشباب ليست في ضمائرهم ولا نياتهم، بل في عقولهم وأفهامهم، ولهذا وُصِفوا في الحديث بأنهم: حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، قال علي - رضي الله عنه - سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام»^(١) يقولون من خير قول البرية يمرقون^(٢) من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم»^(٣) .

وإنما أُنِيَ هؤلاء من قلة العلم، ونقص الفقه؛ فلم يتنفعوا بكتاب الله، مع أنهم

(١) السفيفُ العقل، لسان العرب: ١٣ / ٤٩٧ .

(٢) يمرقون من الإسلام: يخرجون منه خروج السهم إذا نفذ الصيد من جهة أخرى ولم يتعلق به شيء منه . انظر شرح النووي على مسلم: ٧ / ١٥٩ .

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب: إثم من رأى بقراءة القرآن: ٣ / ١٣٢١، رقم الحديث (٣٤١٥) .

يتلونه رطباً، لكنها تلاوة بلا فقه، وربما فقهوه فقهاً أعوجاً، يناقض ما أراد به منزله تبارك وتعالى.

ولهذا حذر الحسن البصري - رحمه الله - من الإيغال في التعبد والعمل، قبل التحصن بالعلم والتفقه؛ وقال في ذلك كلمته البليغة المعبرة: «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يُفسد أكثر مما يُصلح، فاطلبوا العلم طلباً لا يُضِرُّ بالعبادة واطلبوا العبادة طلباً لا يُضِرُّ بالعلم؛ فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم، حتى خرجوا بأسيا فهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا»^(١).

الصورة الثانية: إثارة مخاوف الأقليات غير المسلمة من تطبيق الإسلام، وما يحدث في مصر من إثارة الفتنة الطائفية بين النصارى والمسلمين ظاهر لكل ذي عينين، وضحايا المواجهات بين النصارى والمسلمين أصابت كلا الجانبين.

سادساً: التآمر على الأسرة المسلمة:

الأُسْرَةُ: الدُّرُوعُ الحِصِينَةُ، والأُسْرَةُ: عشيرة الرجل وأهل بيته^(٢).

يقول سيد قطب - رحمه الله - : «الذي ينظر في تشريعات الأسرة في القرآن والسنة في كل وضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها، وينظر في التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات، وفي الاحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات، وفي ربط هذا الشأن بالله مباشرة في كل موضع، يُدرك إدراكاً كاملاً ضخامة شأن الأسرة

(١) مفتاح دار السعادة: ص ٨٢.

(٢) لسان العرب: ١٩/٤.

في النظام الإسلامي، وقيمة هذا الأمر عند الله»^(١). حتى أنها توقع في الحس: أن إنشاء الأسرة في الإسلام أضخم من إنشاء دولة.

ثم قال - رحمه الله - : «شرع الإسلام تشريعات الأسرة: لا لأن النساء في شبه الجزيرة، أو في أي مكان في العالم حينذاك شعرن بأن مكانهن غير مرض؛ ولأن شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء؛ ولأنه كان هناك اتحاد نسائي عربي أو عالمي؛ ولأن المرأة دخلت دار الندوة أو مجلس الشورى، ولأن هاتفاً واحداً في الأرض هتف بتغيير الأحوال، إنما كانت هي شريعة السماء للأرض، وعدالة السماء للأرض، وإرادة السماء بالأرض.

هذا دين رفيع. لا يُعرض عنه إلا مطموس، ولا يعيبه إلا منكوس، ولا يحاربه إلا موكوس؛ فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا من أخذ إلى الأرض واتبع هواه»^(٢).

لماذا هذا الاهتمام من الأعداء بالقضاء على الأسرة المسلمة؟

لأن الأسرة المسلمة هي قاعدة الحياة البشرية، وهي القلب بالنسبة للمجتمع المسلم؛ إذا صلحت صلح المجتمع، وإذا فسدت فسد المجتمع، لذلك سعى أعداء الإسلام إلى استخدام شتى الوسائل لهدم هذا الكيان، فعقدت المؤتمرات وسنت القوانين والتشريعات، وأطلقت الفضائيات، ونشرت المجلات، وجاء في بروتوكولات^(٣) اليهود قولهم: «سوف ندمر الحياة الأسرية بين الأميين ونفسد

(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٥٩٥.

(٢) المصدر السابق

(٣) بروتوكولات: المخطط التفصيلي للسيطرة على العالم بواسطة منظمة يهودية سرية بأساليب متعمدة. (انظر: العقيدة اليهودية وخطرها على البشرية، سعد الدين السيد صالح: ص ١٧٣ -

(١٧٤).

أهميتها التربوية»^(١).

صور التآمر على الأسرة المسلمة لتدميرها :

أولاً: تشجيع الأسر التي تتكون خارج الإطار الشرعي :

عقد مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة وبكين من أجل وضع السياسات والقوانين التي تأخذ في الاعتبار تعددية أشكال الأسرة، كما يطالب المشروع الحكومات أن تقيم وتطور الآليات الكفيلة بتوثيق التغييرات، وأن تجري الدراسات بصدد تكوين الأسرة وهيكلها.

يقول الدكتور عبد الحي الفرماوي - حفظه الله - معلقاً على ذلك: «وفي هذا تشجيع الاعتراف بالأسر التي تتكون خارج الإطار الشرعي - سواء كانت بين رجل وامرأة بدون زواج، أو بين رجلين كما هو موجود في بلاد الغرب، أو بين امرأتين كذلك - وهذا شيء يتناقض تناقضاً صريحاً فظيماً مع ديننا الحنيف، ومبادئه الرامية لصالح البشر أجمعين»^(٢).

ثانياً: التآمر على حجاب المرأة المسلمة :

الحرب ضد الحجاب قديمة بدأت في مصر منذ أكثر من مئة عام؛ حيث ظهر أول صوت من أعداء الإسلام وأنصار التغريب ضد حجاب المرأة المسلمة، ومنذ ذلك الحين لم تهدأ المعركة التي اشتعلت نيرانها في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي بل وغير الإسلامي.

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة: محمد خليفة التونسي، ط: مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، ١٩٧٧: ص ١٦٣.

(٢) عشر مخالفات شرعية في برنامج مؤتمر السكان والتنمية، د. عبد الحي الفرماوي، ط ١٩٩٤م، القاهرة: ص ١٩.

«وكانت أول شرارة في تلك المعركة من الجانب التغريبي في مصر من صديق اللورد كرومر (مرقص فهمي) في كتابه المرأة في الشرق عام ١٨٩٤م، ولكنها لم تُحدث أثراً كالطلقة التي أطلقها قاسم أمين في كتابه المسمى (تحرير المرأة) عام ١٨٩٩م، وذلك بعد عودته من إتمام دراسته في فرنسا.

واهتم الإنجليز بترجمة كتاب قاسم أمين، حتى وصل خبر وموضوع الكتاب مترجماً إلى الهند، واهتمام الإنجليز بترجمة الكتاب ونشره يدل بوضوح على أن الحرب ضد بلاد المسلمين لم تقف عند احتلال الأراضي فقط، بل رعى الإنجليز هذا التيار التغريبي، وانضم إليهم سعد زغلول، وألقت «هدى شعراوي» بحجابها، إعلاناً بدخولها المعركة عملياً وألف قاسم أمين كتابه الثاني (المرأة الجديدة) على خطى ومناول الكتاب الأول.

ثالثاً: التآمر على القوامة في الإسلام:

القَوَامَة: القيام على الأمر أو المال ورعاية المصالح^(١). والمعنى أن: الرجال مُتَكَفِّلُونَ بأمور النساء مَعْنِيُونَ بشؤونهن^(٢).

ومن الشبهات التي تثار حول القوامة^(٣):

- أن الإسلام قد سلب المرأة حريتها، وأهليتها وثقتها بنفسها؛ إذ جعل الرجل قَوَاماً على المرأة.

- أن القوامة تمثل بقايا من عهد استعباد المرأة وإذلالها، يوم أن كانت المرأة كَمَا

(١) معجم لغة الفقهاء: ١ / ٣٧٢.

(٢) لسان العرب: ١٢ / ٤٩٦.

(٣) شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، بيروت: ص ١٢١.

مُهَمَّلًا فِي الْبَيْتِ ، وَفِكْرَةٌ مَجْهُولَةٌ فِي الْمَجْتَمَعِ ، وَأُمَّةٌ ذَلِيلَةٌ مَهِينَةٌ لِلزَّوْجِ .

- ليس من المستساغ ، ولا من العدل أن ينفرد الرجل بالقوامة ، ورياسة الأسرة من دون المرأة ، وقد حطمت أغلال الرق والاستعباد ، وتساوت مع الرجل في كل الحقوق والالتزامات .

وللرد على هذه الشبهات نذكر الآتي :

أولاً : القوامة ليست إلغاء لشخصية المرأة :

قال سيد قطب - رحمه الله - : « إِنَّ هَذِهِ الْقَوَامَةُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا إِغْثَاءُ شَخْصِيَّةِ الْمَرْأَةِ فِي الْبَيْتِ وَلَا فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَلَا إِغْثَاءُ وَضْعِهَا الْمَدْنِيِّ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ وَظِيفَةٌ دَاخِلُ كِيَانِ الْأُسْرَةِ لِإِدَارَةِ هَذِهِ الْمَوْسُئَةِ الْخَطِيرَةِ ، وَصِيَانَتِهَا وَحَمَايَتِهَا ، وَوُجُودُ الْقِيَمِ فِي مَوْسُئَةٍ مَا لَا يَلْغِي وَوُجُودُ وَلَا شَخْصِيَّةٍ وَلَا حَقُوقِ الشَّرْكَاءِ فِيهَا ، وَالْعَامِلِينَ فِي وَظَائِفِهَا ؛ فَقَدْ حَدَّدَ الْإِسْلَامُ صِفَةَ قَوَامَةِ الرَّجُلِ وَمَا يَصَاحِبُهَا مِنْ عَطْفٍ وَرِعَايَةٍ وَصِيَانَةٍ وَحَمَايَةٍ ، وَتَكَالِيفٍ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، وَأَدَابٍ فِي سَلُوكِهِ مَعَ زَوْجِهِ وَعِيَالِهِ»^(١) .

ثانياً : الأشياء التي يُفْضَلُ بها الرجل على المرأة :

قال أبو بكر ابن العربي^(٢) - رحمه الله - : سبب تفضيل الرجل على المرأة في القوامة ثلاثة أشياء :

(١) في ظلال القرآن : ٦٥٢ / ٢ .

(٢) أبو بكر ابن العربي : الفقيه محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد الإمام أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي الأشبيلي الحافظ أحد الأعلام ، ولد سنة ثمان وستين ، كان من أهل التفتن في العلوم والاستبحار فيها والجمع ؛ ثاقب الذهن في تمييز الصواب نافذاً في جميعها ، توفي أبو بكر بمدينة فاس سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة . (الوافي بالوفيات : ١ / ٤٣١) .

الأول: كمال العقل والتمييز.

الثاني: كمال الدين والطاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على العموم... وغير ذلك، وهذا الذي بيّنه النبي ﷺ فعن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء، فقال: «يا معشر النساء تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار». فقلن: ويم يارسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟». قلن: بلى قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تصم؟» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصان دينها»^(١).

وقد نصَّ الله - سبحانه - على ذلك بالنقص، فقال: ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢].

الثالث: بذله لها المال من الصداق والتفقة، وقد نصَّ الله عليها: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]^(٢).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - : «وسبب ذلك - أي القوامة - أن الله - تعالى - فضّل الرجال على النساء في أصل الخلقة، وأعطاهم ما لم يعطهن من الحول والقوة؛ فكان التفاوت في التكاليف والأحكام أثر التفاوت في الفطرة والاستعداد، وثمَّ سبب آخر كسبي، يدعم السبب الفطري؛ وهو ما أنفق الرجال

(١) صحيح البخاري: كتاب الحيض، باب: ترك الحائض الصوم: ١/ ١١٦، رقم الحديث (٢٩٨).

(٢) أحكام القرآن، أبو بكر ابن العربي، تحقيق: علي محمد الجاوي، دار المعرفة، بيروت:

على النساء من أموالهم؛ فإنّ في المهور تعويضاً للنساء ومكافأة على دخولهن بعقد الزوجية تحت رياسة الرجال؛ فالشريعة كرّمت المرأة؛ إذ فرضت لها مكافأة عن أمر تقتضيه الفطرة ونظام المعيشة، وهو أن يكون زوجها قيماً عليها؛ فجعل هذا الأمر من قبيل الأمور العرفية التي يتواضع الناس عليها بالعقود لأجل المصلحة، كأنّ المرأة تنازلت باختيارها عن المساواة التامة وسمحت بأن يكون للرجل عليها درجة واحدة؛ هي درجة القوامة والرياسة، ورضيت بعوض مالي عنها»^(١).

ثالثاً: حاجة المرأة للرجل:

«أما قوامة الرجل، فالمرأة أحوج إليها من الرجل؛ لأنّ المرأة لا تشعر بالسعادة وهي في كنف رجل تساويه أو تستعلي عليه. ولقد ذهبت إحداهن إلى القاضي تطلب طلاقها من زوجها، وحجتها في ذلك أنّها سئمت من نمط الحياة مع هذا الرجل الذي لم تسمع له رأياً مستقلاً، ولم يقل لها يوماً من الأيام كلمة: «لا» أو «هكذا يجب أن تفعلي»، فقال لها القاضي مستغرباً: أليس في هذا الموقف من زوجك ما يعزز دعوة المرأة إلى الحرية والمساواة؟ فصرخت قائلة: كلا... كلا... أنا لا أريد منافساً، بل أريد زوجاً يحكمني ويقودني»^(٢).

مجرمو الأمس ومجرمو اليوم:

مجرمو الأمس ومجرمو اليوم، ومجرمو الغد كلهم سواء. إن الهوة بينهم وبين الإسلام لا تُعبّر، ولا تُقام عليها قنطرة، ولا تقبل قسمة ولا صلة. وإنما هو النضال الكامل إلى أن يتحقق وعد الله للمؤمنين ووعيده للمجرمين.

(١) تفسير المنار: ٦٧/٥.

(٢) المرأة وكيد الأعداء، عبد الله بن أوكيل الشيخ: ص ٢٥.

ذلك أن المجرمين لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين، وتتبع هذا المنهج، وتعيش بهذا النظام.

وتتنوع وسائل مواجهة هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته، ولكن الهدف يظل ثابتاً؛ وهو أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا. وكلما انكسر في يدهم سلاح انتصوا سلاحاً غيره، وكلما كُت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها.

فالمجرمون جبلة واحدة وطبيعة واحدة، في معاملة الحق ومن يحملوه، كما قال - تعالى - : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٣]. تشابهت قلوبهم، فأجرم متأخرهم كما أجرم متقدمهم.

مجرمو اليوم: معدون مدربون يملكون كل وسائل الاتصال بالعالم ويملكون التأثير فيها، ومن يخالف يحارب ويواجه؛ وما قتل الصحفيين في العراق وغزة إلا قتل منهجي يُراد منه طمس الحقيقة، وأن تعيش الأمة في غيبوبة عن عدوها.

مجرمو اليوم: يملكون من القوة أعتها ولا يسمحو لغيرهم بامتلاكها حتى لا يحدث توازن في القوة ويؤدي ذلك إلى نهايتهم.

مجرمو اليوم: لهم كيانات قوية مالياً وسياسياً واقتصادياً وإعلامياً، ولهم مؤسسات وهيئات تدعمهم وتيسر لهم ما يريدون.

مجرمو اليوم: يستخدمون أحسن الوسائل لتركييع وإذلال وتجنيد العملاء لتحقيق أهدافهم وتنفيذ مآربهم.

المبحث السادس

نضال المصلحين ضد المجرمين سنة إلهية

قال - تعالى - : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَّهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْ أَجْمِنًا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿ [هود : ١١٦ - ١١٧].

فمن سنَّته - سبحانه وتعالى - أن يجعل «كبار أئمة الهدى وأفاضلهم يناضلون المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين»^(١).

غير أنه ينبغي، مع ذلك، التنبيه إلى أن سنة الله في تدمير (الباطل) أن يقوم في الأرض (حق) يتمثل في (أمة) . . . ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . فلا يقعدن أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد؛ فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق، ولا يكونون أهله . . . وهم كسالى قاعدون . . . والحق لا يتمثل إلا في أمة تقوم لتُقرَّ حاكمية الله في الأرض، وتدفع

(١) تفسير السعدي : ٢٧١ .

المغتصبين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية^(١).

والآية تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم؛ فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صورته، فيجد من ينهض لدفعه هي أم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. وأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد؛ فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال... والاختلال!

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب... وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين؛ لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صورته... إنهم لا يؤدون واجبه لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أمهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياح^(٢).

من حكم الله في بروز المجرمين ونضال المؤمنين:

ومن حكم الله البالغة أن بروز المجرمين لحرب الأنبياء والدعوات يقوي عودها؛ ويطبعها بطابع الجد الذي يناسب طبيعتها. وكفاح أصحاب الدعوات للمجرمين الذي يتصدون لها مهما كلفهم من مشقة وكلف الدعوات من تعويق؛ هو الذي يميز الدعوات الحقة من الدعاوى الزائفة، وهو الذي يحص القائمين عليها، ويطرد الزائفين منهم؛ فلا يبقى بجوارها إلا العناصر المؤمنة القوية المتجردة، التي لا تبتغي

(١) في ظلال القرآن: ٣ / ٣٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٤ / ٢٧٣.

مغامم قريية؁ ولا تريد إالا الدعوة خالصة تبتي بها وجه الله تعالى .

ولو كانت الدعوات سهلة ميسورة؁ تسلك طرقاً ممهدة مفروشة بالأزهار؁ ولا يبرز لها في الطريق خصوم ومعارضون؁ ولا يتعرض لها المكذبون والمعاندون؁ سهل على كل إنسان أن يكون صاحب دعوة؁ ولاختلطت دعوات الحق ودعاوى الباطل؁ ووقعت البلبه والفتنة . ولكن بروز الخصوم والأعداء للدعوات ؛ هو الذي يجعل الكفاح لانتصارها حتماً مقضياً؁ ويجعل الآلام والتضحيات لها وقوداً؛ فلا يكافح ويناضل؁ ويحمل الآلام والتضحيات إلا أصحاب دعوة الحق الجادون المؤمنون؁ الذين يؤثرون دعوتهم على الراحة والمتاع؁ وأعراض الحياة الدنيا؁ بل على الحياة نفسها حين تقتضيهم دعوتهم أن يستشهدوا في سبيلها . ولا يثبت على الكفاح المرير إلا أصلبهم عوداً؁ وأشدهم إيماناً؁ وأكثرهم تطلعاً إلى ما عند الله واستهانته بما عند الناس؁ عندئذ تتميز دعوة الحق من دعاوى الباطل . وعندئذ تُمحص الصفوف ؛ فيتميز الأقوياء من الضعفاء؁ وعندئذ تمضي دعوة الحق في طريقها برجالها الذين ثبتوا عليها؁ واجتازوا امتحانها وبلاءها . أولئك هم الأمناء عليها الذين يحتملون تكاليف النصر وتبعاته؁ وقد نالوا هذا النصر بثمانه الغالي؁ وأدوا ضريبته صادقين مؤثرين . وقد علمتهم التجارب والابتلاءات كيف يسرون بدعوتهم بين الأشواك والصخور . وقد حفزت الشدائد والمخاوف كل طاقاتهم ومقدراتهم؁ فمنا رصيدهم من القوة وذخيرتهم من المعرفة .

فيكون هذا كله رصيذاً للدعوة التي يحملون رايتها على السراء والضراء .

والذي يقع غالباً أن كثرة الناس تقف متفرجة على الصراع بين المجرمين وأصحاب الدعوات ؛ حتى إذا تضخم رصيد التضحيات والآلام في صف أصحاب

الدعوات، وهم ثابتون على دعوتهم، ماضون في طريقهم، قالت الكثرة المتفرجة أو شعرت أنه لا يمسك أصحاب الدعوة على دعوتهم - على الرغم من التضحيات والآلام - إلا أن يكون في هذه الدعوة ما هو أعلى مما يضحون به وأثمن... . وعندئذ تتقدم الكثرة المتفرجة لترى ما هو هذا العنصر الغالي الثمين الذي يرجح كل أعراض الحياة، ويرجع الحياة ذاتها عند أصحاب الدعوة. وعندئذ يدخل المتفرجون أفواجا في هذه العقيدة بعد طول التفرج على الصراع.

من أجل هذا كله جعل الله لكل نبي عدواً من المجرمين، وجعل المجرمين يقفون في وجه دعوة الحق، وحملة الدعوة يكافحون المجرمين؛ فيصيبهم ما يصيبهم وهم ماضون في الطريق، والنهاية مقدرة من قبل، ومعروفة لا يخطئها الواثقون بالله. إنها الهداية إلى الحق، والانتهاه إلى النصر.

وبروز المجرمين في طريق الأنبياء أمر طبيعي؛ فدعوة الحق إنما تجيء في أوانها لعلاج فساد واقع في الجماعة أو في البشرية:

- فساد في القلوب .

- وفساد في النظم .

- وفساد في الأوضاع .

ووراء هذا الفساد يكمن المجرمون، الذين ينشئون الفساد من ناحية، ويستغلونه من ناحية. والذين تتفق مشاربهم مع هذا الفساد، وتتفسس شهواتهم في جوه الوباء، والذين يجدون فيه سنداً للقيم الزائفة التي يستندون هم في وجودهم إليها... . فطبيعي إذن أن يبرزوا للأنبياء وللدعوات دفاعاً عن وجودهم، واستبقاء للجو الذي

يملكون أن يتنفسوا فيه . وبعض الحشرات يختنق برائحة الأزهار العبقة ، ولا يستطيع الحياة إلا في المقاذر ، وبعض الديدان يموت في الماء الطاهر الجاري ، ولا يستطيع الحياة إلا في المستنقع الآسن . وكذلك المجرمون . . . فطبيعي إذن أن يكونوا أعداء لدعوة الحق ، يستميتون في كفاحها . وطبيعي أن تنتصر دعوة الحق في النهاية ؛ لأنها تسير مع خط الحياة ، وتتجه إلى الأفق الكريم الوضيء الذي تتصل فيه بالله ، والذي تبلغ عنده الكمال المقدر لها كما أراد الله^(١) .

(١) الظلال : ٥ / ٣١٦ .

المبحث السابع

موقف المجرمين من المؤمنين في الدنيا

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢] .

قال السعدي - رحمه الله - : « أخبر القرآن « أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين ، ويستهزئون بهم ، ويضحكون منهم ، ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم ، احتقاراً لهم وازدراءً ، ومع هذا تراهم مطمئنين ؛ لا يخطر الخوف على بالهم ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ ﴾ (صباح مساء) انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿ [المطففين: ٣١] أي : مسرورين مغتبتين ، وهذا من أعظم ما يكون من الاغترار ؛ أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن في الدنيا ، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد أنهم من أهل السعادة ، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى ، وأن المؤمنين ضالون ، افتراءً على الله ، وتجراًوا على القول عليه بلا علم .

قال - تعالى - : ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ [المطففين: ٣٣] أي : وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ؛ ملزمين بحفظ أعمالهم حتى يحرصوا على رميهم بالضلال ، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب ، ليس له مستند ولا برهان ، ولهذا كان

جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم»^(١).

وقال الرازي - رحمه الله - : إنه - تعالى - حكى عنهم أربعة أشياء من المعاملات القبيحة :

«فأولها: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أي: يستهزئون بهم وبدينهم.

وثانيها: قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي: يتفاعلون من الغمز، وهو الإشارة بالجفن والحاجب ويكون الغمز أيضاً بمعنى العيب، والمعنى: أنهم يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً ويعيبونهم، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم ويحرمونها لذاتها ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه.

وثالثها: قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعيم بالدنيا، أو يتفكهون بذكر المسلمين بالسوء.

ورابعها: قوله - تعالى - : ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ أي: هم على ضلال في تركهم التمتع الحاضر بسبب طلب ثواب لا يدرون هل له وجود أم لا؟ وهذا آخر ما حكاه - تعالى - عن الكفار.

ثم قال - تعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ يعني: أن الله - تعالى - لم يبعث هؤلاء الكفار رقباء على المؤمنين، يحفظون عليهم أحوالهم ويتفقدون ما يصنعونه من حق أو باطل، فيعيبون عليهم ما يعتقدونه ضلالاً، بل إنما أمروا بإصلاح أنفسهم»^(٢).

(١) تفسير السعدي: ص ٩١٦.

(٢) تفسير الرازي: ١٥ / ٤.

وقال صاحب الظلال - رحمه الله - «إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم، وسخرية منهم؛ إما ل فقرهم وراثته حالهم، وإما لضعفهم عن رد الأذى، وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء، فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا. وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المرذولة. وهم يسلطون عليهم الأذى، ثم يضحكون الضحك اللثيم الوضع، مما يصيب الذين آمنوا، وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ . . . يغمز بعضهم لبعض بعينه، أو يشير بيده، أو يأتي بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين، وهي حركة ضعيفة تكشف عن سوء الأدب، والتجرد من التهذيب؛ بقصد إيقاع الانكسار في قلوب المؤمنين، وإصابتهم بالخلج والربكة، وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساخرين.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ﴾ بعدما أشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم، ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ راضين عن أنفسهم، مبتهجين بما فعلوا، مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقير؛ فلم يتلوموا ولم يندموا، ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا. وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ وهذه أعجب . . . فليس أعجب من أن يتحدث هؤلاء الفجار المجرمون عن الهدى والضلال، وأن يزعموا حين يرون المؤمنين أن المؤمنين ضالون. ويشيروا إليهم مؤكدين لهذا الوصف في تشهير، والفجور لا يقف عند حد، ولا يستحي من قول، ولا يتلوم من فعل. واتهام المؤمنين بأنهم ضالون حين يوجهه الفجار المجرمون، إنما يمثل الفجور في طبيعته التي هي تتجاوز لجميع الحدود.

والقرآن لا يقف ليجادل عن الذين آمنوا، ولا ليناقدش طبيعة الفرية؛ فهي كلمة فاجرة لا تستحق المناقشة، ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم، ويتطفلون بلا دعوة من أحد في هذا الأمر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ وما وُكِّلوا بشأن هؤلاء المؤمنين، وما أقيموا عليهم رقباء، ولا كُلفوا وزنهم وتقدير حالهم! فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير^(١).

ولقد أُتيحت للمجرمين منافذ ومناير يضحكون فيها من المؤمنين المستقيمين على الدين، ويلمزونهم ويسخرون منهم في القنوات الفضائية والجرائد، والشبكة العنكبوتية.

والمؤمنون على موعدهم مع الله بتبدل الحال.

(١) في ظلال القرآن: ٧ / ٤٩١، ٤٩٣.

المبحث الثامن

تبرّي المؤمنين من المجرمين في الدنيا

قال - تعالى - : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٢٥] .

«معناه التبري منهم أي : لستم منا ولا نحن منكم بل ندعوكم إلى الله - تعالى - وإلى توحيده وإفراد العبادة له ؛ فإن أجبتهم ، فأنتم منا ونحن منكم وإن كذبتهم ، فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا»^(١) .

فكلُّ منا ومنكم له عمله ؛ أنتم ﴿ لَا تُسْأَلُونَ ﴾ عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا ، ونحن لا نُسأل عن أعمالكم ؛ فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق وسلوك طريق الإنصاف ، ودعوا ما كنا نعمل ، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق ؛ فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر ، ويُتبع فيها الحق ، ويُجتنب الباطل ، وأما الأعمال فلها دار أخرى ، يحكم فيها أحكم الحاكمين ، ويفصل بين المختصمين ، أعدل العادلين»^(٢) .

قال - تعالى - : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٢٥] يقول : «فعليّ إثمي في افترائي ما افتريت على ربي دونكم لا تؤاخذون بذنبي ولا إثمي ولا أؤاخذ بذنبكم ، وأنا بريء مما تذنبون وتأمون بربكم من افترائكم عليه»^(٣) .

(١) تفسير ابن كثير: ٣ / ٧١٠ .

(٢) تفسير السعدي: ص ٦٧٩ .

(٣) تفسير الطبري: ٧ / ٣٣ .

المبحث التاسع

سنة الله في عقاب المجرمين

المطلب الأول: القرآن يُرشد إلى ضرورة النظر في السنن الإلهية:

إن سنة الله - جل وعلا - في الأفراد والجماعات قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلائق؛ فالفرد إذا بغى وظلم وظهر عليه آثار إجرامه ولم ينزل به العقاب الإلهي عقب إجرامه؛ فإنه يزداد غياً وإجراماً، ولا يحسب للعواقب حساباً؛ فيسترسل في ظلمه وإجرامه إلى أن يحيق به عذاب الله الشديد. ولقد أمرنا الله - سبحانه وتعالى - أن ننظر لتأمل عاقبة المجرمين، وما حلَّ بهم من الخزي والنكال، وأيضاً وجَّه أنظار وعقول المجرمين؛ ليعتبروا بما حدث للمجرمين من الأمم السابقة حتى يكون رادعاً لهم عن الإجرام.

قال - تعالى - : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٤].

وقال - تعالى - : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

[النمل: ٦٩].

«فلا تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه؛ إلا وعاقبته شر عاقبة وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله»^(١).

(١) تفسير السعدي: ص ٦٠٨.

وما حدث للمجرمين من قَبْل يحدث للمجرمين من بعد؛ فإن السنن لا تحيد ولا تحابي، والسير في الأرض يُطْلَع النفوس على أمثال وسير وأحوال فيها عبرة، وفيها تفتيح لنوافذ مضيئة، وفيها لمسات للقلوب؛ قد توقظها وتحييها. والقرآن يوجه الناس إلى البحث عن السنن المطردة، وتدبّر خطواتها وحلقاتها؛ ليعيشوا حياة متصلة الأوشاج متسعة الآفاق، غير متحجرة ولا مغلقة ولا ضيقة ولا منقطعة.

القرآن يُرشد إلى ضرورة وجود قوم يُبينون السنن الإلهية:

«وإرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنن، يوجب علينا، أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم؛ لنستلهم ما فيها من الهداية والموعظة، على أكمل وجه.

فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، ويبينها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه.

والعلم بسنن الله - تعالى - من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة وقد دلنا على ما أخذه على أحوال الأمم؛ إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها»^(١).

دفع شبهة: قد يعترض قوم قائلون: لماذا لم يُدون الصحابة السنن الإلهية؟

قال الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : «ولا يُحتجُّ علينا بعدم تدوين الصحابة لها؛ فإن الصحابة، لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وُضعت لها الأصول والقواعد وفُرِّعَت منها الفروع والمسائل، وإنني لا أشك في كون الصحابة

(١) تفسير المنار: ١٣٩/٤.

كانوا مهتدين بهذه السنن، وعالمين بمراد الله من ذكْرِها؛ يعني: أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما مُنحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط؛ كانوا يفهمون المراد من سنن الله - تعالى - ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياساتهم للأمم، التي فتحوها، وما كانوا عليه من العلم، بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري البحت، وكذلك كانت علومهم كلها. ولما اختلفت حالة العصر اختلافاً احتاجت معه الأمة إلى تدوين الأحكام، وعلَم العقائد وغيرها، كانت محتاجة أيضاً إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه: علم السنن الإلهية أو علم السياسة الدينية، سَمَّ بما شئت فلا حرج في التسمية»^(١).

طرق معرفة السنن:

قال الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : «السير في الأرض، والبحث عن أحوال الماضيين وتعرُّف ما حل بهم، هو الذي يُوصل إلى معرفة السنن، والاعتبار بها كما ينبغي»^(٢).

من خصائص السنن الإلهية:

أولاً: أنها قدر سابق: قال - تعالى - : ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مُقَدَّرًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] قال القرطبي - رحمه الله - : «هذه مخاطبة من الله - تعالى - لجميع الأمة أعلمهم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء»^(٣).

(١) تفسير المنار: ٤ / ١٣٩.

(٢) المرجع السابق: ٤ / ١٤٢.

(٣) تفسير القرطبي: ١٤ / ١٧٢.

ثانياً: أنها لا تتحول ولا تتبدل:

قال - تعالى - : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾
[الأحزاب: ٦٢] (تحويلاً وتغييراً)^(١).

ثالثاً: أنها ماضية لا تتوقف:

قال - تعالى - : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

رابعاً: أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها:

قال - تعالى - : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾
﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَحَسِرَ
هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥].

خامساً: لا ينتفع بها المعاندون و لكن يتعظ بها المتقون:

قال - تعالى - : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكذِّبِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٣٨].

سادساً: تسري على البر والفاجر:

«فله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امثل شرع الله أو أعرض عنه»^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ١٤ / ٢١٨.

(٢) الحكم و التحاكم في خطاب الوحي: ٢ / ٦٦٧.

المطلب الثاني:

عاقبة أقوام وُصِفوا بأنهم كانوا مجرمين

أولاً: عاقبة قوم فرعون (الاستبداد السياسي)

شكا موسى - عليه الصلاة والسلام - إلى الله فعل فرعون وقومه ، حتى يعجل لهم العقوبة بسبب شرهم الذي استشرى واعتدائهم الذي نال الصغير والكبير ، قال - تعالى - : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ [الدخان : ٢٢] .

«فالإخبار عن كونهم قوماً مجرمين مستعمل في طلب المجازاة على الإجمام ، أو في الشكاية من اعتدائهم ، أو في التخوف من شرهم إذا استمروا على عدم تسريح بني إسرائيل ، وكل ذلك يقتضي الدعاء لكف شرهم^(١) ، وتعجيل العقوبة ؛ فأخبر - عليه الصلاة والسلام - بحالهم وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال^(٢) .

وعلى المؤمنين أن يتأسوا بنبي الله موسى - عليه الصلاة والسلام - في الدعاء بالحال - وما أكثر ما حلَّ على الأمة من فعل المجرمين - على المجرمين الذي هو أبلغ من المقال .

سنة الله في أخذ^(٣) فرعون وقومه :

لقد مضى فرعون في عتوه وضلاله ، وإهانته لبني إسرائيل وتعذيبهم وعثى^(٤)

(١) التحرير والتنوير : ٣٩٦٠ .

(٢) تفسير السعدي : ص ٧٧٣ .

(٣) أَخَذَ فَلَانَ بِذَنْبِهِ : أَي حُبَسَ وَجُوزِيَ عَلَيْهِ وَعُوقِبَ بِهِ ، لِسَانَ الْعَرَبِ : ٤٧٠ / ٣ .

(٤) عَثَى : أَفْسَدَ أَشَدَّ الْإِفْسَادِ ، (انظر مفردات ألفاظ القرآن : ص ٩٥٠) .

وقومه في الأرض فساداً، فجرت عليهم سنة الله في أخذ المجرمين بالهلاك بعد أخذهم بالضراء والسراء.

٤١ لا أخذهم بالسراء :

قال لهم الله - عز وجل - على لسان موسى - عليه الصلاة والسلام - : ﴿كُلُوا
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] أي : «لا تتمادوا في
الفساد في حال إفسادكم، لأنهم كانوا متمادين فيه»^(١).

فلم ينزجروا وتمادوا في غيهم، وقابلوا نعم الله عليهم بالعصيان، فأخذ الله
بعقوبات عاجله هو وأتباعه؛ حيث أخذهم الله بالسنين والجوع والقحط.

ثانياً: أخذهم بالضراء:

قال - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

قال ابن جرير - رحمه الله - : «لقد اخترنا قوم فرعون وأتباعه على ما هم
عليه من الضلالة، بالجُدوب سنة بعد سنة، والقحوط، وذهاب ثمارهم وغلاتهم
إلا القليل، عظة لهم وتذكيراً لهم؛ لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم
بالتوبة»^(٢).

فقد أصابهم الله بهذه المحن لعلهم يتذكرون ويرجعون عما هم فيه، ولعل هذه

(١) تفسير الرازي: ١٠٥/٢.

(٢) تفسير الطبري: ٤٥/١٣.

الشدائد وقسوة الحالة ترقق قلوبهم وتهذب نفوسهم فتوجههم للعمل بما يرضي الله، لكن فرعون وأتباعه لم ينتفعوا بهذا الابتلاء ولم يتعظوا؛ فعندما يأتيهم الخير والرفاء يردون ذلك إلى أنفسهم؛ حيث يقول - تعالى - عنهم: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١] وأما إذا أصابتهم مصيبة من نقص في الأنفس والأموال، ردوا ذلك إلى موسى ومن معه، وهم بذلك يزعمون أن موسى - عليه الصلاة والسلام - مصدر شؤم، وغفلوا عن أن هذا الابتلاء إنما هو من عند الله جزاء ما ارتكبوا من فساد، وانغمسهم في الشهوات؛ حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

«لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء؛ ليرجعوا إلى أنفسهم، وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم، لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله، ويتذللون له، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصه؛ فيرفع الله عنهم البلاء ويفتح لهم أبواب الرحمة، ولكنهم لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوا. لم يلجؤوا إلى الله، ولم يرجعوا عن عنادهم، ولم تَرُدَّ إليهم الشدة وعيهم، ولم تفتح بصيرتهم، ولم تُلن قلوبهم.

والقلب الذي لا تردُّه الشدة إلى الله قلب تحجر؛ فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة، ومات؛ فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس، وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه؛ فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة. والشدة ابتلاء من الله للعبد؛ فمن كان حياً أيقظته، وفتحت مغاليق

قلبه، وردته إلى ربه؛ وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه»^(١).

ثالثاً: أحدهم بالهلاك:

وبعد دعوة موسى - عليه الصلاة والسلام - فرعون عاقبهم الله، كما يقول - تعالى - : ﴿ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] فكانت هذه نهايتهم؛ فكانت إخراجاً لهم من كل ما هم فيه؛ فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم جزاء الظلم والفساد.

وفي هذا يقول الله - عز وجل - : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٩] «فانظر إلى هوانه وهوانهم على الله وعلى هذا الوجود الذي يشمخ فيه بأنفه؛ فيطأطئ له الملائ المفتون به، وهو أضال وأزهد من أن يحس به وهو يُسلب النعمة فلا يمنعها من الزوال ولا يرثي له أحد على سوء المآل.

لقد ذهب هؤلاء الطغاة المتعالون؛ فلم يشعر بهم أحد في هذه الأرض، ولا في السماء، ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء وذهبوا ذهاب النمال^(٢)، وهم كانوا جبارين في الأرض يطأون الناس بالنعال، وذهبوا غير مأسوف عليهم»^(٣). مضروبين بالنعال، منبوذين في كل حال وترحال.

(١) في ظلال القرآن: ٣ / ٣٢.

(٢) النمال: الواحدة: غملة، العين: ٢ / ١٨٨.

(٣) في ظلال القرآن: ٥ / ٣٢١٤.

رابعاً: العذاب في القبر ثم العذاب الشديد يوم القيامة:

قال - تعالى - : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]. قال ابن كثير - رحمه الله - : «مبيناً مراحل العقوبة التي أصابت فرعون وأتباعه: الغرق في اليم، ثم النقل منه إلى الجحيم؛ فإن أرواحهم تُعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة؛ فإن كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار»^(١).

إن سنة الله ماضية في أخذ المجرمين، كما أخذ الله فرعون وقومه، وأمثالهم على مدار التاريخ، وسوف يحق على من سار على دربهم أنواع العذاب بالسراء تارة والضراء تارة، والهلاك تارة أخرى إن لم يعودوا تائبين إلى رب العالمين.

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية، إن العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي، الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع، وليكاد يصيغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء، وذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ، وهي طلائع لا تخطيء على نهاية المطاف، وليس هذا كله إلا بداية الطريق.

فليطمئن المؤمنون، فما المجرمون إلا نُزلاء في هذه الأرض، وهم عنها راحلون.

(١) تفسير ابن كثير: ٨١/٤.

ثانياً: عاقبة قوم لوط (الفساد الأخلاقي):

لقد وصف القرآن قوم لوط بأنهم قوم مجرمون، قال - تعالى - : ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: ٥٨] يعنون قوم لوط^(١)؛ لقد كثر فسادهم وعظم شرهم، لتعذبهم ونعاقبهم^(٢).

ولقد فشا في قوم لوط شذوذ عجيب، يذكر القرآن أنه يقع لأول مرة في تاريخ البشرية. ذلك هو الميل الجنسي المنحرف إلى الذكور بدلاً من الإناث اللاتي خلقهن الله للرجال لتتكون من الجنسين وحدات طبيعية منتجة تكفل امتداد الحياة بالنسل وفق الفطرة المطردة في جميع الأحياء؛ إذ خلقها الله أزواجاً: ذكراً وإناً؛ فلم يقع الشذوذ والانحراف إلى الجنس المماثل قبل قوم لوط هؤلاء، كما قال - تعالى - : ﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠]. عن عمرو بن دينار - رحمه الله - قال: «ما نزا ذكراً على ذكر حتى كان قوم لوط»^(٣).

ومن صور الإفساد التي فعلها قوم لوط بالإضافة لفعلهم الفاحشة: أنهم كانوا «يقطعون السبيل؛ فينهبون المال، ويروعون المارة، ويعتدون على الرجال بالفاحشة كرهاً، وهي خطوة أبعد في الفاحشة الأولى، إلى جانب السلب والنهب والإفساد في الأرض ويأتون في ناديهم المنكر. يأتونه جهاراً وفي شكل جماعي متفق عليه،

(١) تفسير البضاوي: ١ / ٢٣٩.

(٢) تفسير السعدي: ص ٤٣٢ (بتصرف).

(٣) تفسير الطبري: ٢٠ / ٢٨.

لا يخجل بعضهم من بعض . وهي درجة أبعد في الفحش ، وفساد الفطرة ، والتبجح بالرديلة إلى حد لا يرجى معه صلاح»^(١) .

صفات قوم لوط في القرآن :

من الصفات التي وصف الله - عز وجل - بها قوم لوط في القرآن :

أولاً: الإسراف : كما قال - تعالى - : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨١] «أي : متجاوزون لما حده الله ، متجرئون على محارمه»^(٢) .

«والإسراف الذي يدمغهم به لوط : هو الإسراف في تجاوز منهج الله الممثل في الفطرة السوية . والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها ، لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة ؛ فإذا هم يريقونها ويبعثونها في غير موضع الإخصاب ؛ فهي مجرد (شهوة) شاذة ؛ لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية . فإذا وجدت نفس لذتها في نقيض هذه السنة ، فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري ، قبل أن يكون فساد الأخلاق ، ولا فرق في الحقيقة . فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية ، بلا انحراف ولا فساد»^(٣) .

ثانياً: الجهل : كما قال - تعالى - : ﴿ أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴾ [النمل : ٥٥] قال الرازي - رحمه الله - : «تفعلون فعل الجاهلين

(١) في ظلال القرآن : ٥ / ٤٦٢ .

(٢) تفسير السعدي : ص ٢٩٦ .

(٣) في ظلال القرآن : ٣ / ٢٤٨ .

بأنها فاحشة مع علمكم بذلك، أو تجهلون العاقبة، أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها»^(١).

ثالثاً: الفسق: كما قال - تعالى - : ﴿وَلَوْطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْقَرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤] أي: «خارجين عن طاعة الله»^(٢).

رابعاً: الفساد: كما قال - تعالى - : ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وهذا الاستنصار من لوط - عليه الصلاة والسلام - بالله - عز وجل - على قومه يُظهر أن الفساد قد استشرى فيهم بكل ألوانه. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : «إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتم بعضهم بعضاً ويتضارطون»^(٣) في مجالسهم ويخذفون ويلعبون بالترد والشطرنج، ويلبسون المصبغات، ويتناقرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش ويطرفون أصابعهم بالحناء، وتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بلباس الرجال ويضربون المكوس على كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله، وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسحاق»^(٤).

(١) تفسير الرازي: ٣٨ / ١٢.

(٢) تفسير النسفي: ٣٣٣ / ٢.

(٣) ضرط: الضراط صوت الفئخ، (لسان العرب: ٧ / ٣٤١).

(٤) تفسير القرطبي: ٣٤٢ / ١٣.

وهنا يثار تساؤل: هل في الأمة الإسلامية أخلاق قوم لوط؟

لقد تخوف رسول ﷺ من أن تقع أمته فيما وقع فيه قوم لوط، عن جابر قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ»^(١).

قَالَ الطَّبِيُّ - رحمه الله - أَضَافَ (أَفْعَلَ) إِلَى (مَا) وَهِيَ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ لِيُدَلَّ عَلَى أَنَّهُ إِذَا اسْتَقْصَى الْأَشْيَاءَ الْمَخَوْفَ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ لَمْ يُوجَدْ أَخْوَفَ مِنْ فِعْلِ قَوْمِ لُوطٍ^(٢).

موقف قوم لوط من لوط - عليه الصلاة والسلام -:

قال - تعالى - : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] قال الرازي - رحمه الله - وفي قوله: ﴿أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ وجوه:

الأول: أن ذلك العمل تصرف في موضع النجاسة؛ فمن تركه، فقد تطهر.

والثاني: أن البعد عن الإثم يسمى طهارة فقوله: (يَّتَطَهَّرُونَ) أي: يتباعدون عن المعاصي والآثام.

الثالث: أنهم إنما قالوا: (أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ) على سبيل السخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، كما يقول الشيطان من الفسقة لبعض الصالحين إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتكشف، وأريحونا من هذا المتزهد^(٣).

(١) سنن الترمذي: كتاب الحدود، باب: ما جاء في حد اللوطي: ٥ / ٣٧٧، رقم: (١٣٧٧).

(٢) تحفة الأحوذى في شرح الترمذي: ٤ / ٩٥.

(٣) تفسير الرازي: ٧ / ١٨١.

منطق الجاهلية الحديثة هو منطق قوم لوط:

«أليست تطارد الذين يتطهرون؟ فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية - وتسميه تقدمية - أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك، ولا تطيق أن تراهم يتطهرون؛ لأنها لا تتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين؟! إنه منطق الجاهلية في كل حين!»^(١).

سنة الله في أخذ قوم لوط:

قال - عز وجل - : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٤].

وقال - تعالى - : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢] وقال - تعالى - : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤] وقال - تعالى - : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَسَاءَ مَطْرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

صفات الحجارة التي أمطر بها قوم لوط في القرآن ﴿ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢] ووصفت بالمسومة ﴿ مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣].

قال ابن عاشور - رحمه الله - :

أولاً: سِجِّيلٍ: فُسْر ب (وادي نارٍ في جهنم) يقال: سِجِّيلٌ باللام، وسجِّين

(١) في ظلال القرآن: ٣ / ٢٤٨.

بالنون؛ أي بحجارة كأنها من سجل جهنم.

ثانياً: مَنْضُود: الموضوع بعضه على بعض؛ والمعنى هنا: أنها متتابعة متتالية في النزول ليس بينها فترة.

ثالثاً: المسوِّمة: التي لها سِما، وهي العلامة. والعلامات توضع لأغراض؛ منها عدم الاشتباه، ومنها سهولة الإحصار، وهو هنا مكنى به عن المُعدَّة المهيَّنة؛ لأن الإعداد من لوازم التوسيم بقريئة قوله: (عند ربك) لأن تسويها عند الله هو تقديره إياها لهم^(١).

لقد أهلك الله قوم لوط هلاكاً لم يُهلكه أمة من الأمم لشناعة فعلهم؛ حيث «أخذ جبريل قوم لوط من سرَّحهم ودُورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها سُذاذاها»^(٢).

ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاءً لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

«وهذه صورة للتدمير الكامل الذي يقرب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها، وجعلُ عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان، بل أخط من الحيوان؛ فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان»^(٣).

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٧ / ١٧٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤ / ٣٤١.

(٣) في ظلال القرآن: ٤ / ٢٥٧.

الحضارة الغربية تسن التشريعات والقوانين لممارسة اللواط :

إن الشذوذ الجنسي ومخالفة الفطرة في الزواج أخذ طريقه عبر التشريعات والقوانين، تقول جريدة الرياض: «بعد أربع محاولات فاشلة في ثمانية الأعوام الماضية، وافقت الهيئة التشريعية بولاية كاليفورنيا على مشروع قانون حقوق الشاذين جنسياً في كاليفورنيا التي يوجد فيها أكبر جماعات الشاذين وأكثرها نفوذاً سياسياً. وكانت نتيجة التصويت على مشروع القانون هي ٢٢ صوتاً موافقاً، واعتراض ١٦ رغم الانتقادات المريرة من قبل المعارضين»^(١).

ولقد علا شأن الشاذ حتى أصبحت لهم محطات إذاعية تقول مجلة المجتمع: «منحت السلطات الفرنسية الترخيص الرسمي لجماعات الشذوذ الجنسي بإذاعة خاصة بهم.

كما أصبحت لهم أصوات في الانتخابات تؤثر على نجاح الناخبين أو إسقاطهم؛ لذا نجد بعض الرؤساء يلتمسون وُدَّهم ويستمعون إلى مطالبهم، تقول مجلة المجتمع: «وفي الولايات المتحدة تعتبر مدينة سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا عاصمة الشاذين وأصوات هؤلاء الشاذين تمثل ربع ناخبي المدينة تقريباً.

وتقدّر نسبة اللوطيين والسحاقيات بواحد من كل عشرة أمريكيين في الولايات المتحدة مما يجعل عدد الشاذين بين الأمريكيين حوالي ١٧ مليون رجلاً وامرأة من كافة الأصول العرقية والمهنية، والغريب في الأمر أن هؤلاء الشاذين لهم مؤسسات تجارية وسياسية مختلفة و على سبيل المثال لا الحصر: تبلغ أرصدة اتحاد أطلس

(١) جريدة الرياض: ٢٨/٥٧١٨ في ١٧ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ الموافق ١٨ فبراير ١٩٨٤م.

للادخار والقروض للشاذين حوالي ٤٢ مليون دولار»^(١).

«وتقول الإحصائيات الحديثة: إن عدد الشاذين جنسياً في الولايات المتحدة الأمريكية يبلغون ١٧ مليون، ويقدرهم بعض الباحثين بعشرين مليوناً. وهناك معابد وكنائس خاصة في الولايات المتحدة تقوم بتزويج الرجال بالرجال والنساء بالنساء في حفلات خاصة.

وفى مدينة لوس أنجلوس فقط يتجمع ثلاثمائة ألف شاذ جنسياً، وهذا يؤكد ما تقوله دائرة المعارف البريطانية (طبعة ٨٢) من أن: أكبر تجمعات الشاذين جنسياً هي في المدن الكبيرة مثل: نيويورك، ولوس أنجلوس، وشيكاغو، ولندن، وباريس، وأمستردام.

وأبيح الشذوذ الجنسي في بريطانيا؛ حيث صدر قانون بذلك وافق عليه مجلس العموم البريطاني بأغلبية ١٦٤ صوتاً ضد ١٠٧، كما وافق عليه مجلس اللوردات بأغلبية ٩٤ صوتاً ضد ٤٩»^(٢).

نقول: إن الحضارة التي تشيع فيها الفاحشة حضارة ميتة، منتهية - حتماً - إلى الدمار والهلاك، والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية شواهد من التاريخ. ومقدمات الدمار والانهيال في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب للأمم ينخر فيها كل هذا الفساد. والمجتمع الذي تشيع فيه هذه الفاحشة، مجتمع مهدد بالدمار، ومن ثمَّ يجعل الإسلام عقوبة هذه الجريمة أقسى العقوبات؛ لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار والهلاك.

(١) أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الشذوذ الجنسي: مصطفى فوزي غزال، دار السلام للطباعة والنشر: ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م؛ ص ١٩٥.

(٢) ضريبة الخروج على الفطرة: محمد السقايد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: ص ٤٢.

عقوبة اللواط في الإسلام:

قال ابن تيمية - رحمه الله - : مِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَقُولُ : حَدَّهُ كَحَدِّ الزَّانَا . وَقَدْ قِيلَ : دُونَ ذَلِكَ . وَالصَّحِيحُ الَّذِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ أَنْ يُقْتَلَ الْإِثْنَانِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلُ . سِوَاءً كَانَا مُحْصَنَيْنِ أَوْ غَيْرِ مُحْصَنَيْنِ ؛ كَمَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ »^(١) .

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي الْبُكْرِ يُوجَدُ عَلَى اللُّوطِيَّةِ ، قَالَ : يُرْجَمُ . وَيُرْوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَحْوُ ذَلِكَ . وَلَمْ تَخْتَلَفِ الصَّحَابَةُ فِي قَتْلِهِ ، وَلَكِنْ تَنَوَّعُوا فِيهِ ؛ فَرُوِيَ عَنِ الصَّدِيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ أَمَرَ بِتَحْرِيقِهِ ، وَعَنْ غَيْرِهِ قَتْلُهُ ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ : أَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ جِدَارٌ حَتَّى يَمُوتَ تَحْتَ الْهَدْمِ ، وَقِيلَ : يُحْبَسَانِ فِي أَنْتَنٍ مَوْضِعٍ حَتَّى يَمُوتَا ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ : أَنَّهُ يُرْفَعُ عَلَى أَعْلَى جِدَارٍ فِي الْقَرْيَةِ وَيُرْمَى مِنْهُ وَيَتَّبَعُ بِالْحِجَارَةِ ، كَمَا فَعَلَ اللَّهُ بِقَوْمِ لُوطٍ . وَهَذِهِ رَوَايَةٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَالرَّوَايَةُ الْأُخْرَى ، قَالَ : يُرْجَمُ . وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ السَّلَفِ . قَالُوا : لِأَنَّ اللَّهَ رَجَمَ قَوْمَ لُوطٍ وَشَرَعَ رَجْمَ الزَّانِي تَشْبِيهاً بِرَجْمِ قَوْمِ لُوطٍ فَيُرْجَمُ الْإِثْنَانِ سِوَاءً كَانَا حُرَّيْنِ أَوْ مَمْلُوكَيْنِ أَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا مَمْلُوكًا وَالْآخَرُ حُرًّا إِذَا كَانَا بِالْغَيْنِ ، فَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا غَيْرَ بَالِغٍ عَوْقَبَ بِمَا دُونَ الْقَتْلِ وَلَا يُرْجَمُ إِلَّا الْبَالِغُ^(٢) .

(١) سنن أبي داود: كتاب الحدود، باب: فيمن عمل قوم لوط: ١٢ / ٣٨ ، رقم (٣٨٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى: ٦ / ٣٩١ .

المبحث العاشر

مصير المجرمين

أولاً: الصَّغَار والعذاب الشديد في الدنيا والآخرة:

قال - تعالى - : ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والصَّغَار بفتح الصاد: الذل، وهو مشتق من الصغر وهو القماءة ونقصان الشيء عن مقدار أمثاله^(١).

«هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به؛ فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار، وهو الذلة الدائمة؛ لما أنهم استكبروا، فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا^(٢) (وَعَذَابٌ شَدِيدٌ) في الدارين؛ من الأسر والقتل وعذاب النار»^(٣).

وقد جعل الله عقابهم ذلاً وعذاباً: «ليناسب كبرهم وعتوهم وعصيانهم الله - تعالى - والصغار والعذاب يحصلان لهم في الدنيا بالهزيمة وزوال السيادة وعذاب

(١) التحرير والتنوير: ص ١٤١٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢ / ٢٣٢.

(٣) تفسير الكشاف: ١ / ٣٧٦.

القتل والأسر والخوف»^(١).

ثانياً: تمنى المجرم أن يفتدي من عذاب يوم القيامة ببنيه:

قال - تعالى - : ﴿يُصِّرُونَهُمْ لَوْدُ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئذٍ بِنَبِيهِ﴾

[المعارج: ١١].

«في هذا اليوم يشتغل كل مجرم بنفسه إلى حيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه فضلاً أن يهتم بحاله ويسأل عنه؛ فيتمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده ويبدلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك: وهيهات كلا، ردعاً للمجرم عن الودادة، وتصريحاً بامتناع إنجاء الافتداء»^(٢).

«إن الهول ليأخذ بحس المجرم، وإن الرعب ليذهب بنفسه، وإنه ليود لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه، ممن كان يفتديهم بنفسه في الحياة، ويناضل عنهم، ويعيش لهم (ببنيه، وزوجه، وأخيه، وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه) بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق، فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه... وهي صورة للهفة الطاغية والفرع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات! صورة مبطنة بالهول، مغمورة بالكرب، موشاة بالفرع.

وبينما المجرم في هذه الحال، يتمنى ذلك المحال، يسمع ما يبئس ويقنط من كل بارقة من أمل، أو كل حديث خادع من النفس. كما يسمع الملائم جميعاً حقيقة الموقف وما يجري فيه: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُو مِّنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٥ - ١٨].

(١) التحرير والتنوير: ١٤١٤.

(٢) تفسير أبي السعود: ٣١ / ٩.

إنه مشهد تطير له النفس شعاعاً، بعد ما أذهلها كرب الموقف وهوله (كلا) في ردع عن تلك الأمانى المستحيلة في الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن في الأرض جميعاً: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَى﴾ [المعارج: ١٥] نار تتلظى وتتحرق ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ [المعارج: ١٦] تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعاً، وهي غول مفزعة. ذات نفس حية تشارك في الهول والعذاب عن إرادة وقصد: ﴿تَدْعُو مِّنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ [المعارج: ١٧] تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى، ولكنه اليوم؛ إذ تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى! ولقد كان من قبل مشغولاً عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها. ولا يملك أن يفتردي بما في الأرض كله منها^(١).

ثالثاً: جهنم:

قال - تعالى - : ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾

[طه: ٧٤].

أي: «أن المجرم لا يموت ميتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة؛ فهو يألم كما يألم الحي ويبلى به حال الموت في المكروه؛ إلا أنه لا يبطل فيها عن إحساس الألم»^(٢).

رابعاً: تمتع المجرم أيام قليلة ثم البقاء في العذاب أبداً:

قال - تعالى - : ﴿كُلُوا وَتَمَتُّوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]. في الآية

(١) في ظلال القرآن: ٧ / ٣٣١.

(٢) فتح القدير: ٣ / ٥٣٨.

« دلالة على أن كل مجرم نهايته تمتع أيام قليلة ثم يبقى في عذاب وهلاك أبداً »^(١).

خامساً: عدم فلاح المجرمين:

قال - تعالى - : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ١٧] أي: « لا ينجون من محذور ولا يظفرون بمطلوب »^(٢).

سادساً: رؤية المجرمين لنار:

قال - تعالى - : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا

مَصْرَفًا ﴾ [الكهف: ٥٣] «أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تُقَاد بسبعين ألف

زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك، تحققوا لا محالة أنهم موافعوها؛ ليكون ذلك

من باب تعجيل الهم والحزن لهم؛ فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه،

عذاب ناجز، وقوله: ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا ﴾ أي: ليس لهم طريق يعدل بهم

عنها ولا بد لهم منها^(٣)؛ فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ:

« يُنْصَبُ لِلْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِقْدَارُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، كَمَا لَمْ يَعْمَلْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّ

الْكَافِرَ لَيَرَى جَهَنَّمَ وَيَظُنُّ أَنَّهَا مُوَاقِعَتُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً »^(٤).

وقال السعدي - رحمه الله - أي: « لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما

حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحققت كلمة العذاب على المجرمين؛

(١) روح المعاني: ١٧٨ / ٢٩.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٣١ / ٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ١٢٣ / ٣.

(٤) مسند الإمام أحمد: ٢٣ / ٣٣٤ رقم (١١٢٨٩) قال الألباني: صحيح.

فرأوا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون فيه: إنه بمعنى اليقين؛ فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفئدة والقلوب»^(١).

سابعاً: لا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون:

قال - تعالى - : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] قال قتادة: «يدخلون النار بغير حساب ولا سؤال، وقال مجاهد: يعني لا يسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم، وقال الحسن: لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال تقييع وتوبيخ»^(٢).

وقال الرازي - رحمه الله - : «المراد أن الله - تعالى - إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها؛ لأنه - تعالى - عالم بكل المعلومات؛ فلا حاجة به إلى السؤال، فإن قيل كيف الجمع بينه وبين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]؟

قال أبو مسلم: السؤال قد يكون للمحاسبة، وقد يكون للتقرير والتبكيث، وقد يكون للاستعتاب، وألقى الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]^(٣).

(١) تفسير السعدي: ص ٤٨٠.

(٢) تفسير البغوي: ١ / ٢٢٢.

(٣) تفسير الرازي: ١٢ / ١١١.

ثامناً: يأس المجرمين يوم القيامة:

قال - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الروم: ١٢] قال ابن عباس: «يأس المجرمون، وقال مجاهد: يفتضح المجرمون»^(١).

«فها هي ذي الساعة التي يغفل عنها الغافلون، ويكذب بها المكذبون... ها هي ذي تجيء، أو ها هي ذي تقوم! وهؤلاء هم المجرمون حائرين يائسين، لا أمل لهم في نجاة، ولا رجاء لهم في خلاص، ولا شفاعة لهم من شركائهم الذين اتخذوهم في الحياة الدنيا ضالين مخدوعين! هؤلاء هم حائرين يائسين لا منقذ لهم ولا شفيع. ثم ها هم أولاء يكفرون بشركائهم الذين عبدوهم في الأرض وأشركوهم مع الله رب العالمين»^(٢).

وقال السعدي - رحمه الله: «أي: يأسون من كل خير؛ وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا الإجرام (من كفر وشرك ومعاصي) فلما قدموا أسباب العقاب ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب، أسوا وأبلسوا وأفلسوا وضل عنهم ما كانوا يفترونه؛ من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم»^(٣).

تاسعاً: المجرمون ناكسوا رؤوسهم يوم القيامة من الخزي والعار:

قال - تعالى - : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢] المعنى: «فدوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، ودقوا العذاب المخلد

(١) تفسير ابن كثير: ٥٦٧ / ٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٤٨٢ / ٥.

(٣) تفسير السعدي: ص ٦٣٨.

في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة»^(١). ناكسورؤوسهم «أي من الندم والحزني والحزن والذل والغم»^(٢). لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً، وقوله: (تَرَى) يحتمل أن يكون خطاباً مع الرسول ﷺ تشفياً لصدرة؛ فإنهم كانوا يؤذونه بالتكذيب، ويحتمل أن يكون عاماً مع كل أحد»^(٣).

عاشراً: العزلة عن كل خير :

قال - تعالى - : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس : ٥٩] . قال قتادة : عزلوا عن كل خير^(٤) .

وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار يكون فيه لا يرى ولا يرى . ومعناه : أن بعضهم يمتاز من بعض^(٥) .

قال الرازي : في الآية وجوه منها :

الأول : امتازوا في أنفسكم وتفرقوا ، كما قال - تعالى - : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك : ٨] أي بعضه من بعض ، غير أن تميزهم من الحسرة والندامة . ووجه الترتيب حينئذ أن المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته ؛ فيتحسر ، فيقال لهم : امتازوا اليوم ؛ إذ لا دواء لألكم ولا شفاء لسقمكم .

الثاني : امتازوا عن المؤمنين وذلك ؛ لأنهم يكونون مشاهدين لما يصل إلى المؤمن

(١) تفسير الكشاف : ٩٨١ / ١ .

(٢) تفسير القرطبي : ٩٥ / ١٤ .

(٣) تفسير الرازي : ٣٠٧ / ١٢ .

(٤) تفسير الطبري : ٥٧٦ / ١٢ .

(٥) تفسير الكشاف : ١٠٥٢ / ١ .

من الثواب والإكرام ثم يقال لهم: تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم أبداً.

الثالث: امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذي أشار إليه بقوله - تعالى - : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ [يس: ٥٦] فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضاً ولا عذاب فوق الفرقة، بل العقلاء قالوا: بأن كل عذاب فهو بسبب تفرُّق اتصال؛ فإن من قُطعت يده أو أُحرق جسمه، فإنما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض، لكن التفرق الجسمي دون التفرق العقلي.

الرابع: امتازوا عن شفعاكم وقرنائكم؛ فما لكم اليوم حميم ولا شفيع.

الخامس: امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير، ويحتمل أن يقال: إن المراد منه أن الله - تعالى - يقول: امتازوا؛ فيظهر عليهم سيما يُعرفون بها، كما قال - تعالى - : ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ [الرحمن: ٤١]، وحينئذ يكون قوله -تعالى - (امتازوا) أمر تكوين، كما أنه يقول: كن فيكون، كذلك يقول: امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو في وجوههم سواء^(١).

حادي عشر: تعرف الملائكة المجرمين بسيماهم:

قال - تعالى - : ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾

[الرحمن: ٤١].

(١) تفسير الرازي: ٧٢ / ١٣.

يقول - تعالى ذكره - : « تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم وسيماهم التي يسومهم الله بها؛ من اسوداد الوجوه وازرقاق العيون»^(١).

﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ﴾ أي : تأخذ الملائكة بنواصيهم أي بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم ؛ فيقذفونهم في النار . والنواصي جمع ناصية ، وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره .

وعنه (الضحاك) : يؤخذ برجلي الرجل ؛ فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقي في النار وقيل : يُفعل ذلك به ليكون أشد لعذابه وأكثر لتشويبه ، وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ؛ تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه ، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه»^(٢).

ثاني عشر : يمشون بين مكان النار وبين الحمم :

قال - تعالى - : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن : ٤٤] أي : «يمشون بين مكان النار وبين الحمم ؛ فإذا أصابهم حر النار طلبوا التبريد فلاح لهم الماء فذهبوا إليه فأصابهم حرة فانصرفوا إلى النار دوايك»^(٣).

ثالث عشر : المجرمون مقربون في الأصفاذ :

قال - تعالى - : ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم : ٤٩] . أي : «مشدودين ، إما بجعل بعضهم مقروناً مع بعض أو قُرْنَا مع الشياطين ، كما في

(١) تفسير الطبري : ١١ / ٦٠٠ .

(٢) تفسير القرطبي : ١٧ / ١٥١ .

(٣) التحرير والتنوير : ص ٤٢٥٥ .

قوله: ﴿نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] أو جعلت أيديهم مقرونة إلى أرجلهم، والأصفاذ: الأغلال والقيود^(١).

«مشهد المجرمين اثنين اثنين مقرونين في الوثاق، يمشون صفاً وراء صف، مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار. ويضاف إلى قرنهم في الوثاق أن سرايلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للالتهاب، وهي في ذات الوقت قدرة سوداء ﴿مَنْ قَطَرَانِ﴾ ففيها الذل والتحقير، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار! ﴿وَتَغَشَىٰ وَجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فهو مشهد العذاب المذل المتلطي المشتعل جزاء المكر والاستكبار ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]. ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل. (إنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) فالسرعة في الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذي كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم، ويعوق انتصار أحد عليهم؛ فها هم أولاء يُجزون ما كسبوا ذلاً وألماً وسرعة حساب!«^(٢).

رابع عشر: إشفاق المجرمين مما في كتبهم:

قال - تعالى - : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والفتيل والقطمير والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم

(١) فتح القدير: ٣ / ١٦٩ .

(٢) في ظلال القرآن: ٤ / ٤١٥ .

السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا! على ما فرطنا في أعمارنا ﴿ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغراً إلا أحصاها؛ أي ضبطها وحفظها^(١). فهذا هو سجل أعمالهم يوضع أمامهم، وهم يتملونه ويراجعونه، فإذا هو شامل دقيق. وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذي لا يترك شاردة ولا واردة، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا؟ ﴾ وهي قولة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب، وقد ضبط مكشوفاً لا يملك تفلتاً ولا هرباً، ولا مغالطة ولا مداورة ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ ولا قوا جزاء عادلاً ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ هؤلاء المجرمون الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أن الشيطان عدو لهم، ولكنهم تولوه؛ فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب. فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان بين آدم وإبليس! ^(٢).

خامس عشر: سوق المجرمين إلى جهنم عطاشاً:

قال - تعالى - : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مریم: ٨٦] «يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف؛ كأنهم نعم عطاش تساق إلى الماء»^(٣)، وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه: ١٠٢] أي: «ونسوق أهل الكفر بالله يومئذ إلى موقف

(١) تفسير ابن كثير: ٣ / ١١٩ .

(٢) في ظلال القرآن: ٥ / ٦٨ .

(٣) تفسير الكشاف: ١ / ٧٤٣ .

القيامة زرقاً، فقيل: عنى بالزرق في هذا الموضع ما يظهر في أعينهم من شدة العطش الذي يكون بهم عند الحشر لرأى العين من الزرق، وقيل: أريد بذلك أنهم يحشرون عمياً^(١).

سادس عشر: ليس لهم من يشفع لهم:

قال - تعالى - : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ [مریم: ٨٧] أي: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال - تعالى - مخبراً عنهم: ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١].

سابع عشر: المجرمون في ضلال وسعر:

قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴾ [القمر: ٤٧] يقول - تعالى - ذكره - : إن المجرمين في ذهاب عن الحق وأخذ على غير هدى ﴿ وَسُعْرٍ ﴾ يقول: في احتراق من شدة العناء والنصب في الباطل^(٢).

«فهم في ضلال يُعَذِّبُ العقول والنفوس، وفي سُعْر تكوي الجلود والأبدان... في مقابل ما كانوا يقولون هم وأمثالهم من قبل: ﴿ أَبَشْرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنْآ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴾ [القمر: ٢٤] ليعرفوا أين يكون الضلال وأين تكون السُعْر.

وهم يُسْحَبُونَ في النار على وجوههم في عنف وتحقير، في مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار، وهم يزدون عذاباً بالإيلام النفسي، الذي كأنما يُشهد اللحظة حاضراً معروضاً على الأسماع والأنظار: ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨].

(١) تفسير الطبري: ٤٥٥ / ٨.

(٢) تفسير الطبري: ٥٥٨ / ١١.

ثامن عشر: لا بشرى يومئذ للمجرمين:

قال - تعالى - : ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] أي «يُمنعون البشرى يوم يرون أو لا توجد لهم بشرى فيه؛ فأعلم - سبحانه - بأن الوقت الذي يرون فيه الملائكة وهو وقت الموت أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى، ويقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة: حجراً محجوراً، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو وهجوم نازلة؛ يضعونها موضع الاستعاذة؛ يقال للرجل: أتفعل كذا؟ فيقول: حجراً محجوراً؛ أي: حراماً عليك التعرض لي، وقيل: إن هذا من قول الملائكة؛ أي يقولون للكفار: حراماً محرماً أن يدخل أحدكم الجنة»^(١).

تاسع عشر: الندم يوم القيامة:

قال - تعالى - : ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢].

المعنى: «أن المستكبرين لما أنكروا بقولهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾ أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم: ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ أن ذلك بكسبهم واختيارهم، كرّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم؛ كأنهم قالوا: ما كان الإجماع من جهتنا بل من جهة مكرم لنا دائماً ليلاً ونهاراً أو حَمَلِكُمْ إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ أضمرُوا وأظهروا وهو من الأصداد. وهم الظالمون في قوله: ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ

(١) فتح القدير: ٤ / ١٠١.

مَوْقُوفُونَ ﴿ [سبأ: ٣١] أي: يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضللين لهم^(١).

«فهو التخلي عن التبعة، والإقرار بالهدى، وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ولا يأخذون منهم رأياً، ولا يعتبرون لهم وجوداً، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة! أما اليوم وأمام العذاب؛ فهم يسألونهم في إنكار: ﴿أَنْحُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢] من ذات أنفسكم، لا تهتدون، لأنكم مجرمون.

ولو كانوا في الدنيا لقع المستضعفون لا ينسون ببنت شفة، ولكنهم في الآخرة؛ حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة وتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة. ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون، بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهاراً ولا ليلاً للصد عن الهدى، وللتمكن للباطل، ولتلبيس الحق، وللأمر بالمنكر، وللاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء، قال - تعالى - : ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢].

ثم يدرك هؤلاء وهؤلاء أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء، ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين؛ فلكل جريمته وإثمه؛ المستكبرون عليهم وزرهم، وعليهم تبعة إضلال الآخرين وإغوائهم، والمستضعفون عليهم وزرهم؛ فهم مسؤولون عن اتباعهم للطغاة، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين. لقد كرمهم

(١) تفسير النسفي: ٣ / ٣٢٨.

الله بالإدراك والحرية، فعطلوا الإدراك وباعوا الحرية، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً، وقبلوا لأنفسهم أن يكونوا مستذلين؛ فاستحقوا العذاب جميعاً، وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضراً لهم مهياً، قال - تعالى - : ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ . وهي حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور؛ فلا تفوه بها الألسنة، ولا تتحرك بها الشفاه. ثم أخذهم العذاب المهين الغليظ الشديد: ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [سبأ: ٣٣]. ثم يلتفت السياق؛ يحدث عنهم وهم مسحوبون في الأغلال، مهملاً خطابهم إلى خطاب المتفرجين! ﴿ وَهَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ويسدل الستار على المستكبرين والمستضعفين من الظالمين. وكلاهما ظالم. هذا ظالم بتجبره وطغيانه وبغيه وتضليله. وهذا ظالم بتنازله عن كرامة الإنسان، وإدراك الإنسان، وحرية الإنسان، وخنوعه وخضوعه للبغي والطغيان. وكلهم في العذاب سواء. لا يجزون إلا ما كانوا يعملون. يسدل الستار وقد شهد الظالمون أنفسهم في ذلك المشهد الحي الشاخص، شهدوا أنفسهم هناك وهم بعد أحياء في الأرض، وشهدهم غيرهم كأنما يرونهم. وفي الوقت متسع لتلافي ذلك الموقف لمن يشاء^(١).

عشرون : الهلاك :

قال - تعالى - : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا

(١) في ظلال القرآن : ٦ / ١٢٢).

مُجْرِمِينَ ﴿ [الدخان : ٣٧] .

أي : «أهم خير في القوة والمنعة أم قوم تبَّع الحميري الذي دار في الدنيا بجيوشه وغلب أهلها وقهرهم ، وفيه وعيد شديد وقيل : المراد بقوم تبَّع جميع أتباعه لا واحد بعينه .

والمعنى : أن الله - سبحانه - قد أهلك هؤلاء بسبب كونهم مجرمين ؛ فإهلاكه لمن هو دونهم بسبب كونه مجرماً مع ضعفه وقصور قدرته بالأولى»^(١) .

قال ابن تيمية - رحمه الله - : فهذا يبين أن أولئك إذا كانوا كفاراً وقد عذبناهم والكفار الذين كذبوا محمد ليسوا خيراً من أولئك ، بل هم مثلهم استحقوا من العقوبة ما استحقه أولئك ولو كانوا خيراً منهم لم يستحقوا ذلك ؛ فعلم أنه - سبحانه - يسوّي بين المتماثلين^(٢) . وهذا ما يسمى : قانون التماثل ؛ والذي يعني : أن النظير يأخذ حكم نظيره ، والمثيل يأخذ حكم مثيله .

(١) فتح القدير : ٨١٩ / ٤ .

(٢) منهاج أهل السنة : ١٠٨ / ٥ .

المبحث الحادي عشر

من نعيم أهل الجنة

من تمام نعيم أهل الجنة رؤية المجرمين وما هم فيه من العذاب؛ فالتسوية بين المؤمنين والمجرمين في الحكم لا تليق بحكمته - سبحانه وتعالى - كما قال في كتابه: ﴿أَفَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] أي: «أفجعل - أيها الناس - في كرامتي ونعمتي في الآخرة الذي خضعوا لي بالطاعة وذلوا لي بالعبودية وخشعوا لأمري ونهي كالمجرمين الذين اكتسبوا المآثم وركبوا المعاصي وخالفوا أمري ونهي؟ كلا: ما الله بفاعل ذلك»^(١).

وقال ابن القيم - رحمه الله - «نفى الله - سبحانه - عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم، فقال - تعالى - : ﴿أَفَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ ٣٥ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦] فأخبر أن هذا حكم باطل في الفطر والعقول لا تليق نسبته إليه سبحانه»^(٢).

(١) تفسير الطبري: ١٢ / ١٩٥.

(٢) إعلام الموقعين: ١ / ١٣٢.

و من صور هذا النعيم:

أولاً: ضحك المؤمن من الكافر:

فقوله - تعالى - : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤] فيه مسألتان:

المسألة الأولى: المعنى: أن في هذا اليوم الذي هو يوم تصقع الأعمال والمحاسبة يضحك المؤمن من الكافر.

وفي سبب هذا الضحك وجوه:

أحدها: أن الكفار كانوا يضحكون على المؤمنين في الدنيا بسبب ما هم فيه من الضر والبؤس، وفي الآخرة يضحك المؤمنون على الكافرين بسبب ما هم فيه من أنواع العذاب والبلاء، ولأنهم علموا أنهم كانوا في الدنيا على غير شيء، وأنهم قد باعوا فانياً بباقي وبيروا أنفسهم قد فازوا بالنعيم المقيم ونالوا بالتعب اليسير راحة الأبد، ودخلوا الجنة فأجلسوا على الأرائك ينظرون إليهم كيف يعذبون في النار، وكيف يضطرخون فيها ويدعون بالويل والثبور ويلعن بعضهم بعضاً.

الثاني: يقال لأهل النار وهم فيها: اخرجوا وافتح لهم أبوابها، فإذا رأوها قد فتحت أقبلا إليها يريدون الخروج، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم، فذاك هو سبب الضحك.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٣] حال من يضحكون؛ أي يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الهوان والصغار بعد العزة والكبر.

ثم قال - تعالى - : ﴿ هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين: ٣٦] المعنى : كأنه - تعالى - يقول للمؤمنين : هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم ، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة ؟ فيكون هذا القول زائداً في سرورهم ؛ لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم ، والمقصود منها أحوال القيامة^(١) .

قال صاحب الظلال - عليه رحمة الله - : «اليوم والكفار محجوبون عن ربهم ، يقاسون ألم هذا الحجاب الذي تهدر معه إنسانيتهم ؛ فيصلون الجحيم ، مع التأنيب ؛ حيث يقال : ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [المطففين: ١٧] اليوم والذين آمنوا على الأرائك ينظرون في ذلك النعيم المقيم ، وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك المزوج بالتسليم .

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤] .

كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق ، وكان ربهم لا يتركهم بلا عون ؛ من تثبته وتسريته وتأسيته . وهذا التصوير المفصل لمواجههم من أذى المشركين فيه بلسم لقلوبهم ؛ فربهم هو الذي يصف هذه المواجه ؛ فهو يراها ، وهو لا يهملها وإن أمهل الكافرين حيناً ، وهذا وحده يكفي قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه . إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون ، وكيف يؤذيهم المجرمون ، وكيف يتفكه بالأمهم ومواجههم المتفكهون وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون . . . ! إن ربهم يرى هذا كله ويصفه في

(١) تفسير الرازي : ١٥ / ٤ .

تنزيله؛ فهو إذن شيء في ميزانه . . . وهذا يكفي! نعم هذا يكفي حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة ومجوعة .

ثم إن ربهم يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجه قد لا تُحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب، ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرهفة، تُحسه وتقدره، وتستريح إليه وتستنيم .

ثم إن هذه القلوب المؤمنة تشهد حالها عند ربها، ونعيمها في جناته، وكرامتها في الملاء الأعلى . على حين تشهد حال أعدائها ومهانتهم في الملاء الأعلى وعذابهم في الجحيم مع الإهانة والترذيل . . . تشهد هذا وذلك في تفصيل وفي تطويل . وهي تستشعر حالها وتتذوقه تذوق الواقع اليقين . وما من شك أن هذا التذوق يسح على مرارة ما هي فيه؛ من أذى وسخرية وقلة وضعف . وقد يبلغ في بعض القلوب أن تتبدل هذه المرارة فيها بالفعل حلاوة، وهي تشهد هذه المشاهد في ذلك القول الكريم .

ومما يلاحظ أن هذا كان هو وحده التسلية الإلهية للمؤمنين المعذبين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة، وأذاهم البالغ، وسخرتهم اللثيمة . . . الجنة للمؤمنين، والجحيم للكافرين، وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل . . . وهذا كان وحده الذي وعد به النبي ﷺ المبايعين له وهم يبذلون الأموال والنفوس .

فأما النصر في الدنيا والغلب في الأرض، فلم يكن أبداً في مكة يُذكر في القرآن المكي في معرض التسرية والتثبيت .

كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة . وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء

إلى شيء في هذه الأرض، ولا تنتظر إلا الآخرة. ولا ترجو إلا رضوان الله؛ قلبوا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال بلا جزاء في هذه الأرض قريب. ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين.

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل، وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء. وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل... حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، وآتاه النصر في الأرض، واتمناها عليه. لالنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي؛ وهي أهل لأداء الأمانة مذ كانت لم توعده بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تُعطاه. وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاءً إلا رضاه.

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة بعد ذلك. وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه، وجاء النصر ذاته؛ لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرره في صورة عملية محددة، تراها الأجيال؛ فلم يكن جزاءً على التعب والنصب والتضحية والآلام، إنما كان قدراً من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن^(١).

ثانياً: سؤال المؤمنين المجرمين: ما سلككم في سقر؟

قال - تعالى -: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ [المدثر: ٤٢] إن الله - تعالى - يفضل

(١) في ظلال القرآن: ٧ / ٤٩١ - ٤٩٣.

على المؤمنين ويوقفهم موقف الكرامة والاستعلاء؛ يسألون المجرمين سؤال صاحب الشأن المقوّض في الموقف: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض، وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين، وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون، وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى^(١).

وبعد هذا العرض لمصير المجرمين، وكرامة الله للمؤمنين .

ألا فليطمئن المرابطون في ثغور الإسلام من وعد الله لهم في الدنيا بالنصر والتمكين، وفي الآخرة بالجنان وكرامة الرحمن .

ووعيد الله للمجرمين بالصغار والإذلال والهزيمة في الدنيا، والنيران وغضب الرحمن في الآخرة .

(١) في ظلال القرآن: ٧ / ٣٩٧ .

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقنا لهذا البحث (تَمَيَّزُ الْمُؤْمِنِينَ . . . رُؤْيَا قُرْآنِيَّةً) وأسأله
- سبحانه - أن نكون من الذين استبان لهم سبيل المجرمين، وسبيل المؤمنين، وأسأله
- سبحانه - أن يتقبله منا قبولاً حسناً.

وقد تم هذا الموضوع بحمد الله ومَنِّته وكرمه؛ أضعه بين يدي قارئه، ولا أدعي
الكمال فيه:

وما بها من خطأ ومن خَلَلٍ أذنتُ في إصلاحه لمن فعلُ
لكن بشرط العلمِ والإنصافِ فذا وذا من أجمل الأوصافِ
والله يهدي سبيل السلام - سبحانه - بحبله اعتصامي (*)

واذكر ههنا قول القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني (٥٢٩هـ -
٥٩٦هـ) حيث يقول: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً إلا قال في غده: لو غُيِّرَ
هذا لكان أحسن، ولو زيدَ كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّمَ هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ
هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة
البشر»^(١).

(*) اقتباس من منظومة ابن عاصم: ص ١٢.

(١) منهج القرآن في رعاية ضعفاء المجتمع، د. عماد زهير حافظ: ص ٩.

وقال المزنّي - رحمه الله - : «لو عُرض كتاب سبعين مرة لُوجد فيه خطأ؛ أبنى الله - تعالى - أن يكون كتابٌ صحيح غير كتابه»^(١).

فهذا آخر البحث وخاتمته وأعرض فيها - بإذن الله - لأبرز النتائج وأهم التوصيات من خلال معايشة هذا البحث، وتتلخص هذه النتائج فيما يأتي:

١ - بيان فضل الله على الأمة الإسلامية بأن بيّن لها سبيل أعدائها لتجتنب وتبغض.

٢ - أن القرآن الكريم مرجع كل مسلم في تعرّف سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين.

٣ - تسليّة الله للمؤمنين بما أعدّه للمجرمين من العقاب في الدنيا والآخرة، وبما أعدّه للمؤمنين من العزة في الدنيا والكرامة في الآخرة.

٤ - صار المجرمون أكابر المجتمع لأسباب منها: غفلة أهل الحق، وضعفهم وتفترقهم وجهلهم.

٥ - مضت سنة الله أن يجعل أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم، ويجاهدونهم في سبيل الله، والعاقبة للمتقين.

(١) النكت في القرآن: ص ٨.

وأوصي:

١ - بضرورة دراسة سنن الله - تعالى - الكونية والاجتماعية، وأن تصنّف موسوعة علمية في السنن الإلهية؛ تكون مرجعاً علمياً للعلماء والباحثين والكتّابين والدعاة والمصلحين.

٢ - تكاتف الأمراء والعلماء والمصلحين من أجل إعداد جيل من المؤمنين قادر على دفع المجرمين وإبطال باطلهم، وإحقاق الحق.

المراجع والمصادر

- ١ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم: أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار الفكر ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٢ - أضواء البيان، في إيضاح القرآن بالقرآن: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٣ - إعلام الموقعين عن رب العالمين: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجليل، بيروت ١٩٧٣م.
- ٤ - أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الشذوذ الجنسي: مصطفى فوزي غزال، دار السلام للطباعة والنشر، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٥ - التحرير والتنوير: محمد بن الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٨٤م.
- ٦ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: عبد الرحمن عبد الرحيم المباركفوري، دار الاتحاد العربي، ط: الثانية ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- ٧ - تفسير البغوي (معالم التنزيل): أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة - بيروت.
- ٨ - تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل و أسرار التأويل): البيضاوي، دار الفكر، بيروت.
- ٩ - تفسير الرازي (التفسير الكبير و مفاتيح الغيب): الفخر الرازي محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن علي الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط: الأولى.

- ١٠ - تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط: الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ١١ - تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ١٢ - تفسير القرآن العظيم: الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، مكتبة العبيكان، الرياض - السعودية، ط: الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ١٣ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) أبو عبد السلام محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت - لبنان ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- ١٤ - تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، تحقيق وتعليق: محمد مرسي عامر، مراجعة: شعبان محمد إسماعيل، دار المصحف: شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، ط: الثانية ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- ١٥ - تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط: الثانية.
- ١٦ - تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي.
- ١٧ - جريدة الرياض ٥٧١٨/٢٨ في ١٧ جمادى الأولى ١٤٠٤هـ - ١٨ فبراير ١٩٨٤م.
- ١٨ - الحكم والتحاكم في خطاب الوحي: عبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة: الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- ١٩ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين السيد الألويسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط: الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٢٠ - سنن أبي داود: الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، دار الفكر، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- ٢١ - سنن الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، طبعة مصطفى الحلبي، تحقيق: أحمد شاكر، ط: الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م
- ٢٢ - ضريبة الخروج على الفطرة: محمد السقا عيد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- ٢٣ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي محمد الشوكاني، دار الخير، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ٢٤ - في ظلال القرآن: سيد قطب، دار العلم للطباعة و النشر، جدة - السعودية، ط: الثانية عشرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٢٥ - لسان العرب: ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت - لبنان، ط: الأولى ١٣٠٠هـ.
- ٢٦ - مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، ط: الأولى، السعودية.
- ٢٧ - المحرر الوجيز: ابن عطية أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ٢٨ - مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن القادر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان «بدون تاريخ».
- ٢٩ - مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٠ - منهاج السنة النبوية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني،
تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط: الأولى ١٤٠٦ هـ.

Summary

Praise be to God, prayer and peace be upon our Prophet Muhammad and his family and companions and later: This research entitled (criminals in the light of the Holy Quran), reveals a way to avoid criminals and hate, an entertainment for the believers, including by God for their dignity, and what God prepared for criminals indignity and humiliation on the Day of Resurrection. The research aims to identify, for criminals to identify the insured, for the faithful believe Aliqini that arises on the right and those who fought and ledonh the wrong confidence, clarity and certainty. The discussion dealt with the definition of criminals, and the reasons they are criminals, and their status and position of the believers in the world, and the attitude of the faithful are in the world and the hereafter, and the fate of criminals on religion, and to offer two models of the clans of offenders: people of Pharaoh, and sodomites, and then we Naim people of Paradise. Research has highlighted a number of results, please return it to the benefits of good Koranic studies.

فهرس الموضوعات

٥	المقدمة
٧	المقدمة
١١	المبحث الأول: تعريف
١٤	المبحث الثاني: (جرم) في الاستعمال القرآني
٢١	المبحث الثالث: أسباب كون المجرمين مجرمين كما ورد في القرآن
٢٩	المبحث الرابع: صفات المجرمين كما وردت في القرآن
٣٢	المبحث الخامس: الإحرام المعاصم
٥٤	المبحث السادس: نضال المصلحين ضد المجرمين سنة
٥٩	المبحث السابع: موقف المجرمين من المؤمنين في الدنيا
٦٣	المبحث الثامن: تبري المؤمنين من المجرمين في الدنيا

٦٤	المبحث التاسع: سنة الله في عقاب المجرمين
٨٢	المبحث العاشر: مصير المجرمين
٩٨	المبحث الحادي عشر: مصير أهل الجنة
١٠٤	الخاتمة
١٠٧	المراجع والمصادر
١١٢	المفهرس
